



مجاناً مع جريدة الاتحاد

رودلف اريك راسب

مغامرات مونشاوزن



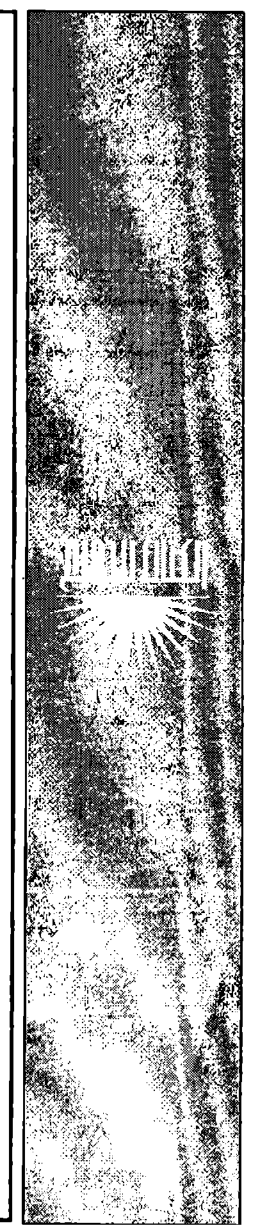
نقلها عن الالمانية:

أحمد عطية الله



مجاناً مع جريدة الإتحاد





■

رئيس التحرير

فرياد رواندزي

■

موبايل ٠٧٩٠١٣١٠٢٣٢
هاتف ٥٤٣٨٩٥٨-٥٤٣٨٩٥٤
E-mail:lttihadpress@yahoo.com

سلسلة شعبية تعيد إصدارها
دار المدى للثقافة والنشر

رئيس مجلس الادارة والتحرير
فخري كريم

الاشراف الفني
محمد سعيد الصكار

سورية - دمشق - ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy
لبنان -بيروت- الحمراء- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb
العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٢ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com



١٤

رودلف اريك راسب

مغامرات مونشهاوزن

نقلها عن الالمانية:

احمد عطية الله

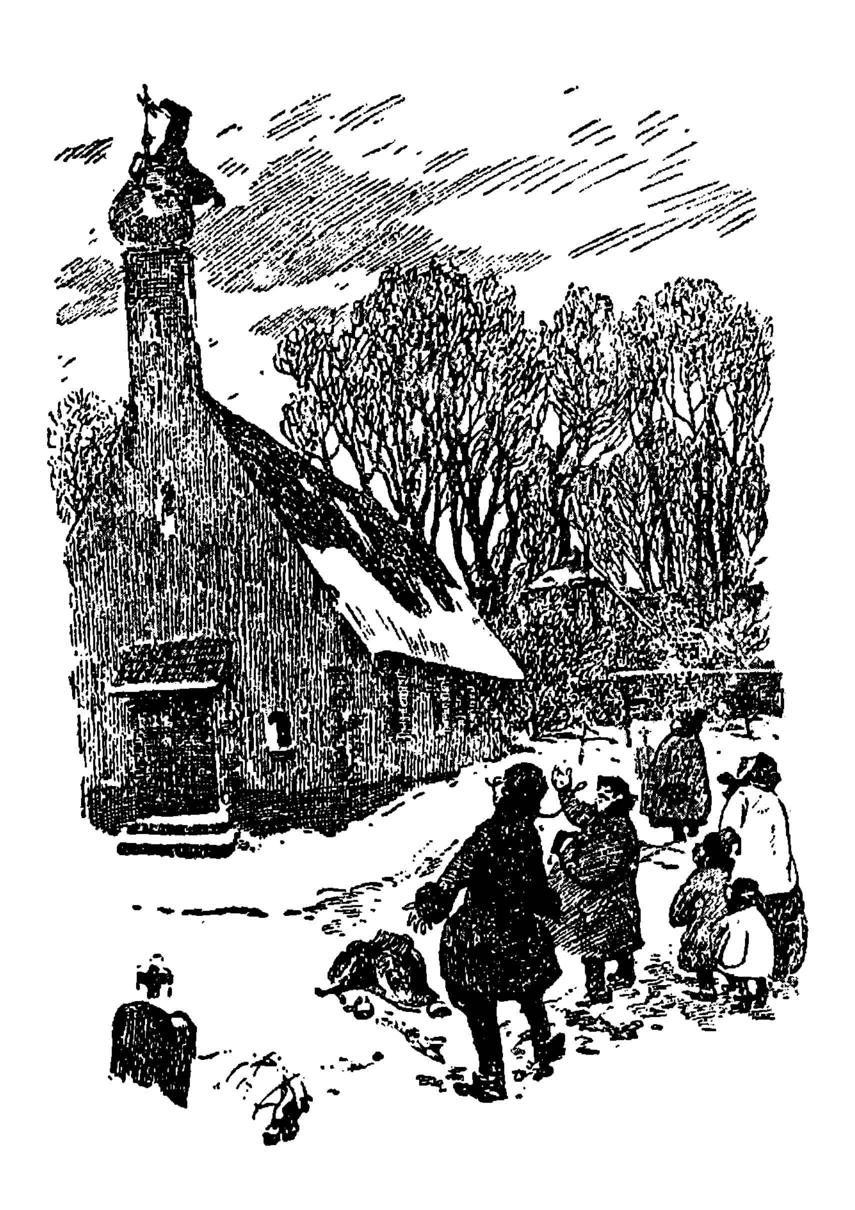
طبعة خاصة

توزع مجانا مع جريدة (الاتحاد)

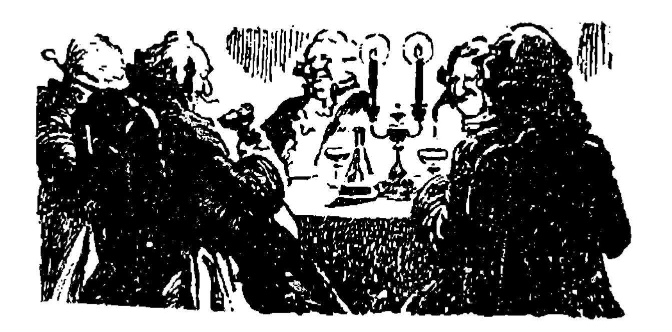
دار المدى للثقافة والنشر

٢٠٠٥





الليلة الأولى



جلسَ البارونُ فون مُونشَهاوزِن بين أصدقائه من هواة الصيد وأخذ يفركُ يديه كعادته كلما جاشت نفسُه ببعض الخواطر واستثارته بعضُ ذكريات الفروسيَّة . وبعد أن فرغ من طعامه وشرابه أخذ يدور بعينيه ويبتسم ابتسامة ساخرة ، وكأنه أراد أن يعقد أبصار الجالسين حوله رغبة منه في تشويقهم لما سيقصه عليهم ويرويه لهم

حتى إذا شملَ السكونُ المجلس بدأ «البارون فون مُونشَهاوزِن»

حديثه قائلاً

- أصدقائي الأعزاء ، ويا رفاق الصيد!

أعود بكم مرةً أخرى إلى الماضي لأقصَّ عليكم طرفاً من أخبار مُغامراتي . فقد كنت أيها السادة في يوم من الأيام شاباً ممتلئاً فتوة شديد المراس لا أعبأ بالمخاطر ولا تثني عزيمتي الأهوال والمغامرات ، ويكفي أن أقصَّ عليكم مثلاً من هذا الماضي الطريف

حدث في مساء أحد الأيام وقد كادت الشمسُ أن تختفي وراء الأفقِ أن كنت عائداً إلى بيتي بعد نهارٍ طويلٍ قضيته في الصيد حتى حطَّ عليَّ التعبُ ، وملأ عيوني النومُ ، ممتطياً صهوة جوادي الأشهب ، بَيْدَ أنني لم أكن أحس من شدة التعب بما يدور حولي ولم أتنبَّهْ إلا وقد وقف جوادي فجأة على حافة مستنقع

نظرتُ يميناً ويساراً فإذا بالطريق قد انتهت عند حافَّة هذا المستنقع ، ولكنها كانت تستمر بعد ذلك ؛ فتذكرت حينذاك أن الأمطار التي كانت تهطل بغزارة منذ بضعة أسابيع لا بدَّ أنها سبَّبت هذا الفيضان الذي غمرَ الطُرُق واكتسح الجسور فلم يكن أمامي إلا أن أفكر في التو والساعة في وسيلة أخرى للوصول إلى بيتي

أيجوز لي أن أعود من حيث أتيتُ لأبحث عن طريق آخر ؟ لا! إن هذا الحل لا يرضيني ؛ لم أقلِّب الرأي طويلاً بل نكأتُ الجواد بمهمازي فارتفع على ساقيه الخلفيتين وما هي إلا ثانية حتى كنتُ وإيَّاه في الهواء ، مع أن جوادي كان بادي الإجهاد بعد نهار حافل بالصيد الوفير (إذ أن جملة ما اصطدته في ذلك اليوم كان عشرين أرنباً -أو قلْ- ثلاثين على الأقل ، وهذا ما سأحدثكم به فيما بعد)

كان عرض هذا المستنقع لا يقل عن عشرين ذراعاً وكان على جوادي أن يقفز ستَّ مرّاتٍ على الأقلّ ليصلَ إلى حافتِهِ الأخرى ، فوكَزتُه من جديد فاندفع نحو المستنقع ولكنه لم يسِرْ طويلاً حتى انغرست

سيقانه في الوحل وكلما حاولتُ أن أدفعه إلى الأمام أخذ يغوصُ في الطين ولم تمضِ دقائق حتى كاد يختفي ، فلم يبدُ منه إلا عنقه!

ليس هنالك سبيلٌ للنجدة! فماذا تظنون يا أصدقائي قد جال بخاطري في تلك اللحظة ؟ لقد كانت فكرةً جريئةً ولكنها انتهت بنجاح!

لم أنتظر طويلاً بل ألصقتُ ركبتي بظهر الجواد حتى أصبحتُ وكأنني مسمَّرٌ به ، ثم أمسكت جدائل شعري بيدي اليمنى التي كانت خاليةً طليقةً ، ثم جذبتُ نفسي جذبةً قويةً إلى أعلى فانسَلتتْ بذلك سيقان الجواد المغروسة في الطين ، وكان من شدة الجذبة أن ارتفعتُ وإياه في الهواء ، وما أن أحسَّ الجوادُ بحريّته حتى أخذ في القفز ، وما أن وصلَ إلى حافة المستنقع حتى أخذ يركضُ دون أن يتوقّف حتى وصلنا سالمين إلى البيت

إن الصياد البارع ، يا سادتي ، لا يقلُّ ذكاءً ولا نبوغاً عن القائد العسكري الذي يحاولُ أن يفتح عنوة مدينةً من المدن المحصّنة التي امتنع عدوُّهُ بأسوارها وأبراجها إن الصيّاد البارع كالقائد البارع يحتاج كلاهما إلى شدة اليقظة والافتنان في ابتكار الوسائل التي توصلُهُ إلى غايته وتذليل العقبات المفاجئة

فقد يحدث أن يُفاجأ الصيّادُ بنفاد ما معه من الرصاص ، فيُشكل عليه الأمر إذ أن البارود وحده لا يكفي لإطلاق البندقية ، عند ذلك تبدو قدرة الصياد وبراعته . وإني لأقص عليكم حكاية على سبيل المثال

حدث في ذات صباح أن كنت أنظر من نافذة القصر الذي أعيش فيه ، وكان إلى جواره بركةٌ فسيحةٌ فإذا بها مغطّاة بأسراب من الإوز البرية!

وأنا -كما تعلمون- من الناس الذين لا يُعْنَون بالزينة والتجميل في كل صباح ، لهذا ما أن وقع نظري على هذا السرب من الطيور حتى هرْولْتُ من مكاني وحملتُ بندقيتي على كتفي واندفعت نازلاً حتى أنني

لم أكن أعرف موضع درجات السلم ؛ إذ اجتاحتني نشوةٌ عجيبةٌ فلم أتوقف ثانية حتى وصلت إلى البركة



ولكنني عندما حاولت أن أعَمِّرَ بندقيتي وجدت أنني نسيتُ الرصاص ، لهذا أعملت فكري في وسيلة لإشعال البارود ؛ فتحت غطاء خزانة البندقية وأسندت خشبتها إلى خدّي ، عند ذلك جمعت قبضة يدي وأهويتُ على عيني بخبطةٍ قويةٍ في اللحظة التي حرَّكتُ فيها زناد البندقية . فما أمّلته وانتظرته حدث بالفعل ، إذ من أثر تلك الخبطة القوية التي هويتُ بها على عيني انبعث شررٌ كافٍ أشعل تراب البارود ، فانطلقت البندقية وأصابت الهدف فبلغ نصيبي من هذه الطلقة ثلاثين إوزة برية

وفي مرة أخرى خرجتُ لأجرب بندقية جديدة في بعض الحقول فأخذ كلبي يطارد سرباً من السُّمان حتى شال من موضعه وحطّ في مكان قريب مني -فثارت في نفسي رغبةٌ ملحةٌ لاقتناص بعضه- إذ كنتُ في مساء ذلك اليوم قد دعوت جماعةً من أصحابي لتناول العشاء معي- والسُّمان كما تعرفون من الطيور التي تصلُحُ لإعداد طبقٍ فاخرٍ على المائدة



ولكنَّ سوء الحظ كان ملازمي إذ أنني وجدت جراب الخرطوش خالياً ؛ ولكنني لم يُسقط في يدي ، بل حشوتُ البندقية بتراب البارود وسددْتُ الموضع بقطعةٍ من الفلّين ثم بريتُ مِدَكّة البارود حتى أصبح طرفها كقلم الرصاص ، وأنفذتها إلى مكان البارود وأخذتُ أكرِّر ذلك حتى اشتعل ، فانطلقت البندقية -وهكذا حقّقتُ أمنيتي فعدتُ إلى البيت ومعي اثنتا عشرة سمانةً

والصياد الماهر ، يا أصدقائي الأعزاء ، ليس من الضروري أن يكون عبداً لبندقيته في كل مرة . بل إنه قد يبلغ غايتَه باستخدام ما يقع في يده مصادفةً . وأضرب لكم مثلاً ما جرى لي في بلاد لِثوانيا إذْ خرجتُ ذات مرة أضرب في الغابات وقد حملت بندقيتي على كتفي بينما كنت أعبث بمسمارٍ كبير بين أصابعي . وعلى حين غفلةٍ ظهر أمامي ثعلبٌ ذو فروةٍ سوداء جميلةٍ وأخذ يقترب إلى ناحيتي دون أن يراني

لقد كانت فروة ذلك الثعلب فاخرةً ثمينةً حتى أنني وجدت من خطل الرأي أن أطلق عليه رصاصةً تمزِّق هذه الفروة الجميلة . انتظرت قليلاً فرأيتُ الثعلبَ يلجأ إلى جذع شجرة من شجر البلوط وهو هادئ يدور برأسه ذات اليمين وذات اليسار ؛ عند ذلك مرَّتْ برأسي فكرةٌ بديعةٌ ، فسرت على أطراف أصابعي واختفيتُ وراء شجرةٍ قريبةٍ ونزعتُ الخرطوشة من بندقيتي في هدوء ووضعتُ في مكانها ذلك المسمار فلما تم ذلك سدَّدتُ البندقية صوبَ الثعلب وأطلقتها : أتدرونَ يا سادتي ما حدث ؟

نظرتُ فوجدتُ الثعلبَ في مكانه لم يتحرَّك إذ أنه تسمَّر بجذع الشجرة وقد نفذ ذلك المسمار في ذيله . عند ذلك أخرجتُ سكين الصيد وتسلَّحت بكرباج الكلاب واقتربت من الثعلب في اطمئنان وأخذتُ أسلخُ فروهُ الثمين وكأنني كنت أخلع قميصاً ، حتى إذا أصبح عارياً أطلقت سراحه فراح يعدو إلى الغاب حيث رفاقه من الثعالب ، التي جعلته موضع سخريتها وفكاهتها! ولكن مَنْ يدري فلربما نبت له فروٌ جديد بعد ذلك!

أراكم تضحكون يا أصدقائي! ولكنْ حُسنُ الحظ كان حليفي بسبب ذلك المسمار الذي كنت أحمله في يدي مصادفة ولولا ذلك ما نجحتْ فكرتي

بعد هذا الحادث بأيام كنت في طريقي عائداً إلى البيت ، وكان البارودُ قد فرغ مني ، وبينما أنا كذلك إذا بخنزير برّي هائج يطلُعُ عليَّ

-وكلنا يعرف الفزع الذي يتملك النفس لمثل هذه المفاجأة- لهذا لا أظن فيكم من يلومني على أنني حاولت الهرب ملتجئاً إلى أقرب شجرة

كانت تلك الشجرة التي احتميتُ بها صغيرةً غضّةً حتى كادت غصونُها تنوء بحَمْلي ، وما كدتُ أسحبُ ساقي من فوق الأرض حتى كان ذلك الخنزير يهجُمُ علي الشجرة ، لذا نجوت بأعجوبة من فتكه بي ولما كان قد جاء مندفعاً بقوة هائلة صوب الشجرة انغرست ناباه الطويلتان في جذعها الغضّ حتى برز طرفاهما من الجانب الآخر بمقدار قيراطٍ!

لم أفكر طويلاً بل هبطت من الشجرة وبحثت عن قطعة من حجر الصَّوان بردت بها الطرفين الناتئين من نابي الخنزير ، ومن ثم عدت إلى بيتي

وفي اليوم التالي انكفأت راجعاً أحمل بندقيتي في صحبة جماعة من الفلاحين معهم عربة نقل ؛ ولم أسأل نفسي كيف قضى غريمي ليلته مسمَراً بجذع الشجرة ، بل اكتفيتُ بطلقةٍ من بندقيتي صوَّبتُها إلى جبهته . وأي حيوان مارد كان ذلك الخنزير ؟! إنَّ أعرَفَ الناس بشؤون الصيد ليستحيل عليه أن يتصوَّر ضخامته ، إذ بلغتْ زِنتُهُ خمسة أطنان ، وإنَّ ذلك لشيءٌ نادرٌ بين الخنازير البرية

الليلة الثانية

لا ريب أنكم سمعتم يا أصدقائي عن القديس «هوبارتس» راعي الصيادين كما سمعتم ولا شكَّ عن ذلك الوعل العجيب الذي رُسمتْ بين قرنيه علامة مقدَّسة رائعة . وقد جعلتُ من عادتي أن أحيي عيد هذا القديس في الثالث من شهر نوفمبر من كل عام وأقدِّم إليه القرابين كما قدمتُ آلافاً من المرات العليق إلى هذا الوَعْل من فاكهة الكرز

وإني لأترك أمرَه لأحدِّثكم بحكايةٍ جرت لي مع وعلٍ عجيبٍ آخر فقد حدث مرةً أن صادفتُ وعلاً نادراً في بعض البراري وكان جرابي قد خلا من البارود ، ولعل الوعْل عرف ذلك لأنه اقترب مني دون أن يتوجّس مني خيفةً ، وأخذ يحدِجُني بنظرة هادئة مستقرة

فأثار منظره عندي فكرةً عجيبةً ، عند ذلك فتحتُ خزانة بندقيتي وملأتها بحفنة من نوى الكرز –إذ كنت أتسلى بأكل بضعة أرطالٍ منه– وكان الوعل ينظرُ إليَّ وكأنه يبتسم ساخراً ، فصوبْتُ بندقيتي المحشوة بالكرز نحوه وأطلقتها بين قرنيه فأخذ الوعلُ ينفضُ نفسَه ويهزُّ رأسه مراتٍ عدة ويحني عُنُقه وكأنه ينحني إليَّ مسلّماً ، ثم أولاني ظهره واختفى في الغابة وكم أسِفتُ لأنني لم أجد ما أقتنصُ به هذا الوعل النادر ، وكان ما فعلتُهُ معه من باب الفكاهة اللطيفة ، حتى أننا كنَّا إذا أكلنا كرَزاً بعد ذلك أخذ بعض المتفكهين من أصدقائي يجمع نوى الكرز

كذخيرة لي إذا ما خرجت لصيد الوعول في المستقبل . ولكن سُرعان ما أصبحتْ هذه الأفكوهة مُمِلة ممجوجةً

ثم حدث بعد عامين من ذلك أن كنا نصطاد في تلك البرية نفسها وإذا بوعلٍ نادرِ المثال يبرز أمامنا وقد نبتت على ظهره شجرة بلغ ارتفاعها نحواً من عشرة أقدام . فتذكرتُ بالطبع حكاية البندقية المحشُوَّة بنوى الكرز كما أحسست بأنني المالك الشرعي لهذا الوعل بما يحمل ، لذلك أسرعتُ وأطلقتُ عليه رصاصة من بندقيتي فخرَّ في التوِّ صريعاً ، فكان سبباً لوليمة فاخرة من الشواء والحلوى ، إذ إن تلك الشجرة التي على ظهره كانت محمَّلة بأطيب الكرز الشهيِّ ، الذي نبتتْ شجرتُه من ذلك النوى الذي أطلقته على الوعل منذ سنتين

نعم كم ذا يقابلُ الإنسانُ من عجائب! وإنني لأذكرُ لكم على سبيل المثال حكايةً غريبةً فعلاً فصيدُ الفئران بطُعم من لحم الخنزير أمرٌ معروف ، ولكنكم لم تسمعوا كيف اصطدت ثلاث عشرةَ بطَّة بقطعةٍ من لحم الخنزير



فقد حدث ذاتَ صباح أن كنتُ أعِدُ نفسي لرحلةٍ طويلةٍ ، وبينما أنا في الطريقِ مررتُ ببحيرةٍ يسبحُ فيها سربٌ نافر من البطِّ ، ولم يكن معي إلا طلقةٌ واحدة لا تصيب إلا بطَّة واحدة ، ثم تُفرِّق هذا السِّرْبَ

على وجه الماء ، ولكنَّني صمَّمت على اقتناصه جميعاً ، إذ كنت في تلك الليلة قد دعوت جماعة من الأصدقاء للعشاء

كان ذلك اليوم مشؤوماً من مطلعه إذْ قابلتُ في صباحه « كاترين » تلك الساحرةُ العجوزُ ذاتُ الشعر الأحمر ، فانقضى اليوم دون أن يواتيني الحظُّ في الصيد . وها أنذا وليس معي واحدةٌ وقد نفد البارودُ دون رجعةٍ ، فماذا أنا صانعٌ بهذه الطلقة الفريدة وأمامي الصيد وفير ؟

وبينما أنا أحاولُ حلاً لهذه المشكلة تذكَّرت قطعةً من لحم الخنزير كنتُ أحملها زاداً ليومي هذا فأخرجتُها من جرابي ومَدَدْتُ حبلاً طويلاً كان معي وعقدتُ به قطعة القديد كما يفعل صيّاد السمك ، وألقيتُ بطرفه في الماء ثمّ اختفيتُ وراء حشائش الشاطئ وطَفِقتُ أشاهد البطَّة الأولى وهي تقترب من الخيط ، وما أسرع أن ازدردت قطعة القديد ولمّا كانت عَسِرة الهضم أخرجتها بعد قليل دون أن تهضمها ، وبقي الخيطُ في جوفها ؛ فما أن برزتْ من مؤخرها حتى بلعتها البطةُ الثانية التي لفظتها بعد قليل دون أن تهضمها ، وبقي الخيطُ في جوفها ، وهكذا حتى ثلاث عشرة بطةً نُضِّدتْ في الخيط كما يُنَضد خرزُ العِقْد

أحسستُ بلذةٍ عميقةٍ لهذا النجاح ، فشددتُ طرف الحبل حولي وسحبتُ الصيدَ من خلفي عائداً إلى البيت ، بيدَ أنني أخذتُ أحِسُّ شيئاً فشيئاً بأن الطيور بدأت تفزَعُ وتهيجُ . وما هي إلاّ لحظةٌ حتى وجدتُ نفسي مُرتفعاً في الهواء . وما حدث هو أن هذه الإوز البريَّة التي كانت مازالت حيَّة بعد أن أصابها ما أصابها ، أخذت تُرفرفُ بأجنحتها ثم تطيرُ جماعةً فحملتني معها وارتفعت بي في الهواء

وبعد أن زالت عني غُمَّة الدهشة استعدتُ اتّزاني فنشرتُ ذيلَ مِعْطفي الكبير في الهواء كالشراع ، وأخذت أديره كما أدير دفَّة القارب متجهاً صوب منزلي ، ولما اقتربتُ من مدخنة البيت مرَّتْ برأسي فكرةٌ جرينةٌ ، فأخذت أهصُرُ رقبة الإوزِّ وزَّةً وزَّةً ، وهكذا بدأتُ أهبطُ رويداً رويداً حتى حططتُ على المدخنة ، وما أن رآني الطاهي حتى

تملّكته الدهشة ، وكان في ذلك الوقت يوقد النار إعداداً للعشاء . وكان رفيقي في هذه الرحلة العجيبة كلبي بيكاس ، وهو كلبُ صيدٍ ماهر ، فأخذ يتبعني وهو يهزُّ رأسه في عنف وانزعاج ، ولم يصمتْ عن النُباح ونَبْش الأرض حتى أشاع الاضطراب في حظيرة الماشية ؛ نعم ، نعم إن قديدةً من اللحم التي تصيدُ الفئران اصطاد بها مونشهاوزن الإوزّ!

ومن المحقق أن الحظ والمصادفة المحض كانتا سبباً في نجاحي ولكن ليس ذلك قاعدةً مطردةً ، إذ قد يجرُّ الخطأُ في بعض الأحيان إلى حظ غير مقصود

لقد حدث مرةً أنني صادفتُ في غابةٍ من الغابات عِجلاً برياً تتبعهُ أمه ، فرفعت بندقيّتي بيد أنني ترددّتُ بينهما ، فلم أقرِّر أيُّهما الذي أجعله هدفاً لي ، ولكن بعد فترة من هذا التردُّد انطلقتِ البندقيةُ فإذا بالصغير يفزعُ ويهرب مسابقاً الريحَ ، أما الأمُّ فقد وقفت جامدةً في مكانها وكأنّها تبحثُ عن شيءٍ ما حول المكان . ولما اقتربتُ منها وجدت بين أسنانها خصلةً من ذَنَبِ صغيرها ، ولما دقّقتُ النظر وجدتها -ويا للغرابة- عمياء!

وبالطبع لم أتردَّد ، بل تقدَّمت إليها وأمسكتُ بطرف الخصلة وسحبتُ الأمَّ ورائي حتى وصلت إلى منزلي ، فلما رأت زوجتي هذه البقرة الوحشية أمامها تدخل المطبخ تولاّها الذّعر

وقد يجد الإنسانُ نفسَه في بعض الأحيان في مأزقٍ من المآزق التي لا تُجدي حيلةٌ من الحيل للتخلص منه إلا فيما ندر كما حدث مرةً عندما اعترض طريقي في غابةٍ من غابات بولندا دبٌّ شرسٌ ، وقد أمسى المساء ونفد مني البارود

أخذ هذا الحيوانُ الكاسرُ يقتربُ مني وقد مدَّ ذراعيه وفتحَ فمه ،

بينما كانت الأفكار تتزاحمُ في رأسي لعلي أهتدي إلى وسيلة للنجاة ، وما كنت أدري ما وطّن عليه العزم : أيهصرني بين ذراعيه ، أم يفتِّتُ رأسي بنطحةٍ قاتلة! وكانت أصابعي تعبثُ في جيوبي باحثةً عن رصاصةٍ أطلقها عليه ، ولكنني لم أجد إلا بضعة أحجارٍ من أحجارِ الزناد كنت أحملها لشأنٍ من شؤوني

وأخذ الدبُّ يقترب مني رويداً رويداً حتى بدأتُ أحسُّ بزفراتهِ الحارة تلفح وجهي ، فما كان مني إلا أن قذفتُ بحجر من هذه الأحجار في فمه المفتوح ، ولا شك في أن ذلك قد آذاهُ بعض الشيء لأنه استدار إلى يساره وأخذ يعوي بصوتٍ يدلُّ على الألم البالغ ، وكانت هذه الحركة سريعةً للغاية ، حتى أنني عندما صوبت قطعة الحجر الأخرى كان قد ولاّني ظهره فأصابت دُبُرَه!

وما هي إلا بضعُ ثوانٍ حتى كان الحجران قد تقابلا في جوف الدبِّ وقدح الواحد منهما الآخر فأشعلا في جوفه ناراً ، فأخذ الدبُّ يزمجرُ ويتلوّى من شدة الألم ثم انفجر بقوةٍ عنيفةٍ ، عند ذلك تنفست الصعداء إذ نجوت من خطرٍ محقَّق ؛ فتعلمتُ بعد هذه التجربة أن أكون دائماً على قَدَم الاستعداد للدفاع عن نفسي إذا حدث وعدت ثانيةً إلى بولندا ، إذ أن الدببة تنتشرُ بها كما تنتشرُ الصراصيرُ في الربيع

حدث في وارسو أن عقدت الصحبةَ بقائدٍ بولوني مشهورٍ ، تعرفون اسمه ولا شك ، وهو الجنرال «سكرِبودَانِسْكي» الذي اشترك في الحرب التركية وأصيب بشظيَّةٍ في عظم جمجمته فاستعاض عنها برقيقةٍ من الفضة وكنا نتقابلُ في كلِّ يومٍ في حانة حيث كان يحتسي النبيذ بشراهةٍ

ومما أثار إعجابي أن الجنرال إذا ما ارتفعت الخمرُ المجريةُ إلى رأسه وأصبحت وجوهنا حمراء قانيةً بفعل النبيذ المعتّق كان من عادته أن يرسلَ أصابعه تجوسُ خلال شعره ، وما أن تمضي دقيقةٌ حتى يختفي

احتقانُ وجهه ويعود إلى صحوه من جديد ، ولم يجد رفاقُنا في ذلك أمراً غير عادي ؛ وسرُّ ذلك أن الجنرال إذا ما بدأ يفقد وعيه يحرِّك الرقيقة الفضية التي تغطي كسرة الجمجمة من مكانها حتى يتسرب منها بخارُ النبيذ

ولكي أزداد اقتناعاً بحقيقة الأمر جلستُ مرَّةً إلى جانب الجنرال كما هي عادتي ، وأشعلتُ ثقاباً ولكنني بدلاً من أن أوقدَ به غليوني قربته إلى رأس الجنرال المخمور فإذا بلهيبٍ أزرق لطيف ينبعثُ من مكان الفتحة

ولما لحظ الجنرال هذه المناورة تركني وشأني وأخذ يبتسم في اغتباط ، فبدا في تلك الساعة كأنه القديس نيقولا تحيط به هالةٌ من النور

وقد أعجبتني هذه الفكرة جداً لطرافتها ، لذلك رحت إلى أحد الصاغة المشهورين بالبراعة وطلبتُ منه أن يصنع لي غطاءً فضيّاً كذلك أرفهُ بي عن نفسي إذا لعبت الخمر برأسي ؛ ولكنه أصرَّ على أن يفتح ثُقباً في جُمجمتي ، أو أن أنتظر حتى الحرب القادمة لكي تتهيأ لي فرصةٌ لأصاب بشظيةِ قنبلةٍ طائرةٍ أما عن الطريقة الأولى فلم أجازف بنفسي ، أما عن الطريقة الثانية فإنني ما زلتُ أنتظر نشوبَ حرب ثانيةٍ ، وإن كنتُ قد بدأتُ أحس بأنه لا ضرورة لذلك نظراً إلى أن الحاجة إلى خمرٍ قويةٍ ليست ملحةً عندنا كما هي الحال في تلك البلاد الشمالية الباردة

وقد يسألني سائلٌ : أيُّ كلبَيَّ أشدّ براعةً ؛ أهي فِينِس أم الكلبُ بيكاس ؟ والجواب على ذلك أن كليهما بارعٌ في فن من فنون الصيد أما فينس فذات أنفٍ قويّ الشمّ ، أما بيكاس فكلبُ صيدٍ مثابرٍ لا يقرُّ له قرارٌ ، ولأقصَّ عليكم حكايةً من حكاياته

حدث بعد أن تزوجتُ بقليل أن أبدت زوجتي رغبة في أن تصحبني في رحلة للقنص فركبتُ جوادي وسرتُ في المقدَّمة لأبحثَ عن صيدٍ ما ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى وقف كلبي بيكاسُ قبالة سربٍ من البط البريَ يبلغُ ما لَا يقلُّ عن مئة بطةٍ . فانتظرتُ حتى تحضر زوجتي ، وكان في صحبتها مساعدي وخادمٌ من الخدم ، ولما طال بي الانتظار تملكني القلق فعدت أدراجي حتى وصلت إلى منتصف الطريق سمعتُ أصواتاً ونَهْنَهةً تبدو وكأنها صادرةٌ من مكان قريب ولو أنني لم أرَ حوالي أحداً من قريبٍ أو بعيدٍ

وكان من الطبيعي أن أنزل عن فرسي ، فوضعتُ أذني على الأرض أتسمّع مصدر الصوت فإذا به ينبعث من بطن الأرض ، ثم أخذت أميِّز صوت زوجتي وكلام مساعدي وخادمي . فتحيرتُ في أمري ، إذ كيف انتهى بهم الطريق إلى هذا المكان ، وأكبر ظني أنهم دخلوا منجم فحمٍ مهجورٍ فانهار عليهم على بعد تسعين ذراعاً من سطح الأرض على الأقل

فأسرعت إلى القرية القريبة وأحضرت جماعةً من العمال لإنقاذ هؤلاء المنكوبين ، وبعد جهدٍ جهيدٍ تمكنّا من إخراج الخادم ثم فرسه ، ثم مساعدي وحصانه ثم زوجتي وفرسها التركية ، ولكن الغريب في الأمر أن أحداً منهم لم يُصب بأذى مع أنهم وقعوا من ارتفاع ستمائة قدمٍ . نعم يا أصدقائي إنه الحظُ

ومن البديهي أننا لم نستمرّ في ذلك اليوم بعد هذا الحادث فعُدْنا إلى البيت ، وهناك وجدتُ رسولاً ينتظرني ويدعوني إلى مهمةٍ سريعةٍ فسرتُ على الأثرِ ، ولم أقضِ ساعةً في الراحة ، وسلختُ في هذه المهمة أربعة عشر يوماً ولا أريد أن أحدثكم في هذه المرة عما جرى لي في قلعة « ويزل » إذ إنَّ حديثي اليوم عن كلبي بيكاس فما أن رجعتُ من هذه الرحلة حتى سألتُ عنه ولكنَّ أحداً لم يردَّ على سؤالي إذ كانوا يظنون أنه صحبني في رحلتي الأخيرة

عند ذلك طرأت عليَّ فكرةٌ -وقلت في نفسي : أيجوز أن يكون الكلب حتى هذه الساعة في حراسة سرب البطِّ ؟ فدفعني الأملُ والخوفُ إلى البحث عنه في ذلك المكان نفسه الذي كنا فيه منذ أسبوعين وهناك -ويا للعجب- رأيت بيكاس الأمين في مكانه لم يبرحه! فما أن ناديته حتى وثب على قدميه واندفع إليَّ فهاجت الإوز ، وكان من حسن حظي أن اصطدتُ خمساً وعشرين منها بطلقةٍ واحدة . ولا أظنُّ أن أحداً منكم يا أصدقائي قد مرت به مثل هذه التجربة السعيدة

أما بيكاسُ الشجاعُ فكان قد أهلكه الجوعُ وهدَّه التعبُ والإعياءُ حتى أنه ما كان ليمشي إلا زحفاً ولا يقدر على شيء إلا لحس يديَّ فما كان مني إلا أن حملتُه على فرسي وعدتُ به إلى البيت حيث كانت رعاية زوجتي إياه سبباً لانتعاشه



وفي خلال ذلك كنتُ أفكر ملياً في حل مشكلةٍ لا أجد لها حلاً ، إذ قضيت يومين أحاول أن أقتنص أرنباً كبيراً ولكنَّ الحظَّ لم يواتني ، فكان

بيكاسُ يسوقه إلي مكاني ولكني مع ذلك ما كنت لأستطيع أن أسدّد عليه النار . وما أنا من الذين يؤمنون بالسحر والساحرات إذ لا أصدق إلا ما تعترف به حواسّي الخمس . ثم تيسَّر لي في النهاية أن أقتنص هذا الأرنب العجيب بطلقةٍ صائبةٍ فلما اقتربت منه رأيت –ويا للعجب– أن لهذا الأرنب أربع أرجلٍ أخرى في ظهره . عند ذلك تكشَّف لي سِرُّه وعرفتُ سبب سرعة جريه : فكان إذا أجهده العدو انقلب (كما يفعل السبَّاح في الماء) على ظهره وأخذ يعدو بأرجله الأربع الأخرى التي تكون أثناء ذلك في فترة الراحة

ولا أظن أحداً منكم قد صادف في رحلاته مثل هذا الأرنب العجيب ، وأصدقكم القول بأني لم أر مثيلاً له مرّةً أخرى

الليلة الثالثة

تذكرون يا رفاقي الأعزاء ما حدّثتكم به في ليلتنا الماضية عن كلبي وأما الليلة فسأحدثكم عن طرائف كلبٍ آخر

لم تكن كلبتي «زفيرتا» أقل براعةً من كلبي بيكاس الذي سمعتم شيئاً عنه . فقد حدث في يومٍ من الأيام أن خرجتُ للصيد ولم أرد أن أصطحبها لأنها كانت حاملاً إذ ذاك ، وكان من العسير عليها أن تعدو بسرعةٍ كافيةٍ . ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى بدا لنا أرنب بريّ وكان نادراً في ضخامته فما أن رأته كلبتي حتى انطلقتْ وراءه ، فقلتُ لنفسي دعها ونفسها تجري كما تشاء ، وأخذت أسير هَوْناً بجوادي فسرعان ما اختفى الأرنب أمام عينيّ ، وبعد قليلٍ سمعت نباحاً ضعيفاً ولكنني لم أعرف ما هو ولم أميز صاحبه

ثم إنني اتَّجهت صوب مصدر الصوت فلما اقتربتُ منه رأيتُ منظراً عجباً . رأيتُ الأرنبة وقد ولدت خمس أرانب صغيراتٍ وفي الوقت نفسه كانت كلبتي قد وضعت خمسة أجراء كذلك إذ كانت صاحبة ذلك النباح الخافت ، ثم تقدمتْ زفيرتا وحملت الأرنبة الكبيرة بفمها كما اصطاد كلُّ جروٍ من أجرائها أرنباً من الأرانب الصغيرة وهكذا بدأتُ الصيد بكلبٍ واحدٍ وأرنبٍ واحدةٍ ، ثم عدتُ إلى البيت مُصطحباً ستَّة

كلابٍ وستَّ أرانب . لقد أثار هذا المنظر ضحك زوجتي وأشاع المرح في البيت



كانت زفيرتا كلبةً شديدة العدو جمَّة النشاط لا تهدأ ولا تستقر لهذا أخذت أقدامها في الانبراء من كثرة العدو والرواح فأصبحت قصيرة حتى اقترب بطنها من الأرض ، فلم يعد لها مجال في رحلات الصيد لهذا استخدمتها كبعض كلاب الزينة وعندما تقدَّمت بها السن عميتْ لهذا كنتُ أعقد حول ذنبها فانوساً صغيراً تسيرُ به في البيت . هذه بعض طرائف كلبتي العزيزة زفيرتا يا أصدقائي الأعزاء

حدث بعد أن انتهى موسم الصَّيد الذي رويتُ لكم بعض أخباره أن عقدت العزمَ على السفر إلى روسيا ، وعندما وصلتُ إلى وارسو في بولندا رأيت أن أقضي فيها أياماً ، وكان ذلك من سوء الحظ لأن الشتاء كان قد أقبل وكان شتاءً غير عادي سقطتْ فيه الثلوج وتراكمت حتى غطَّت الوديان ، ولكن ذلك لم يمنعني من متابعة السفر . وسرعان ما تعودتُ احتمال ذلك البرد القارس فلم أعد أحسُ بشدَّته

كانت الثلوج قد أخذت تغطي كل شيء حولي حتى كنت أقضي اليوم بأسره دون أن أمر بقريةٍ أو خانٍ من الخانات أو بيتٍ من البيوت ، وكنت في سيري متَّجهاً دائماً صوب الشمال مهتدياً بشروق الشمس وبمواقع النجوم ، ولكنَّ العجب تملَّكني إذ كنت أعلم بعد دراستي للخرائط الجغرافية الخاصة بهذه المنطقة أنها مغطاةٌ بغاباتٍ كثيفةٍ بينما لا أرى حواليَ إلا صحارى ثلجيةً جرداء لا ترتفع فيها شجرةٌ ولا يقوم فيها جدارٌ

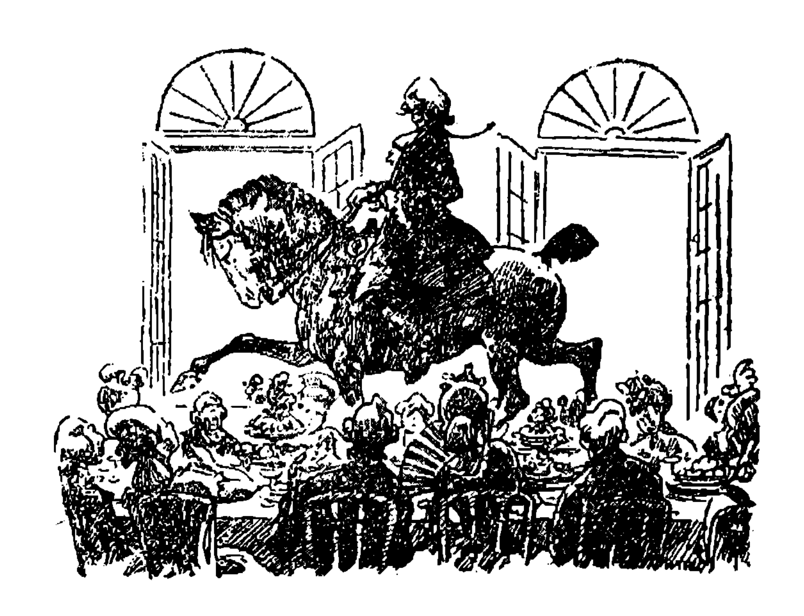
وعندما أقبل الليلُ كان التعب قد تملَّكني فنزلت عن جوادي وأخرجت بعض الخبز وقسمتُهُ بيني وبين جوادي إذ لم يكن هنالك ما يأكله في هذه البرية الجرداء الخالية من العشب وعندما تلفتُّ حولي وجدتُ قطعةً من الخشب كطرف جذع شجرةٍ مدبَّب ، فربطتُ لجام الجواد به ثم تمدَّدتُ على الثلج على بضع خطواتٍ منه بعد أن جعلت من السَرج وسادة لرأسي ، ومن حسن الحظِّ أن خفتت العواصف الباردة

وأخذت تهبّ ريحٌ جنوبيةٌ لطيفةٌ ؛ فنمت نوماً هادئاً إذ سرعان ما شملني النّعاس فلم أنتبه إلاّ وكان النهار قد تفتّح

وعندما تلفّتُ حواليّ ظننت أني أحلم إذ وجدت نفسي راقداً في فناء كنيسة قريةٍ من القرى ، فلمّا بحثتُ عن جوادي لم أجد له أثراً عند ذلك طرقتْ سمعي أصوات مختلطة . فما أن أدرتُ رأسي نحو مصدر الصوت حتى تبيّنت صهيل جوادي وقد انبعث من الفضاء فوق رأسي كما ألفيتُ جماعةً من الفلاحين متجمعين حولي وقدْ ارتسمت على وجوههم الدهشة وهم يشيرون بأصابعهم إلى حيث كانوا ينظرون في الفضاء . فماذا رأيتُ هنالك على قمة برج الكنيسة رأيت جوادي مربوطاً! من ذا الذي يا تُرى قد حمله إلى ذلك المكان ؟ ولكن بعد قليلٍ تجلّت لي الحقيقةُ سافرةً

كانت هذه القرية قد غمرتها الثلوج في الليلة الماضية ، وكان أهلها قد تحصّنوا في البيوت ، فحبسوا أنفسهم بها وما كنت قد رأيته في ضوء النجوم الباهت وتحت تأثير لمعان الثلج فحسبتُه جذع شجرة كان ذلك في الحقيقة قمة برج الكنيسة فربطت حصاني به ، ثم إن الثلج أخذ في الذوبان أثناء نومي وهكذا طفقت أهبط رويداً رويداً حتى استقرَّ بي الرقاد على الأرض

كان أول ما فعلتُه أن عملتُ على تخليص حصاني من مكانه هذا فأخرجتُ مسدّسي وأطلقته فقطعت بذلك اللجام المعقود به ؛ فما كان من جوادي الشجاع إلا أن وثب من ذلك الارتفاع إلى الأرض وهو يهز رأسه وذيله فرحاً بي . وكان صاحب الخان رجلاً طيب القلب لأنه أسرع وأحضر طعاماً لكل منّا ؛ وبينما كان جوادي يلتهم مقداراً مزدوجاً من القُرْطُم طفق صاحب الخان يقصُّ عليّ أخبار الثلوج التي تسقط في كل شتاء بمثل هذه الشدّة في بولندا وبعد أن كافأته على ضيافته ببعض النُقود الذهبية (وإن كان قد تمنّع كثيراً) تابعتُ رحلتي في طريقٍ كانت حافلة بالأشجار بعد أن ذابت عنها الثلوج



بعد بضعة أيام وصلت مقاطعة لتوانيا ونزلتُ ضيفاً على الكونت «بُرزُوبوفِيسكي» في ضيعته وهو من النبلاء المعروفين ، وقصدت بذلك أن أستريح بعض الوقت وأستجمَّ قبل أن أعاود رحلتي الطويلة إلى روسيا

حدث مرة أن كنا جلوساً حول مائدة الشاي فإذا بأصواتٍ ترتفع من مربط الخيل وإذا بصائح يقول بأن حصاناً حديث العهد قد انفلت زمامه فما أبِهتُ في بادئ الأمر مما جرى بل بقيتُ في صحبة السيدات حول المائدة ، ثم إذا بالنداء يستحيل صراخاً وطلباً للنجدة ، فتلفَّتُ فوجدت هذا الحصان قد ثارت ثائرته وأخذ يرفسُ ويعضُّ من حوله حتى إن السائس الماهر عجز عن الاقتراب منه ، فعم الجميع الذعرُ عند ذلك صاحَ الكونت «برزوبوفيسكي» بي قائلاً «هلمَّ يا منشهاوزن فليس من أحدٍ سواك يروّض هذا الفرس الجامح»

فمـا كـان مني إلا أن وثبتُ وثبةً واحدةً فاعتليت ظهر هذا الجوادِ الهانجِ ، وما كانت إلا هنيهة حتى تملَّكتُ زمامه فعادَ إلى هدوئه

وأبدتْ السيدات رغبةً في أن ترى هذا الجواد المستوحش ؛ فمرقتُ به خلال النافذة المفتوحة إلى غرفة الشاي وأخذتُ أطوفُ به عدة مرات حول المائدة بخطواتٍ متزنةٍ متناسقةٍ ، ثم وثبتُ فجأة على المائدة نفسها وأخذت أتخطَّر ببراعة فائقة بين الكؤوس الزجاجية والأباريق والأطباق المرصوصة دون أن أتعثر بها حتى علتْ الدهشةُ وجوهَ السيدات وتملك الكونت العجبُ لبراعتي هذه ، فما كان منه إلا أن قدم إليَّ هذا الجواد الأصيل هديةً وتذكاراً

ولما علم البارون أني جئت إلى روسيا لكي أشترك في الحملة الحربية ضد الترك وهي التي يقودها المارشال مُونيج رغب في أن يكون هذا الجواد بالذات في خدمة جنديٍّ شجاع مثلي حتى يعيد ذكرى «بوكفالوس» جواد الإسكندر الأكبر المشهور

الليلة الرابعة

أعـودُ هذه الليلة لأقصَّ عليكم ما جـرى بـعـد أن أهداني البـارونُ البولنديُّ ذلك الجوادَ الجامحَ   فقد خرجتُ في اليوم التالي للرياضة في بعض الحقول ، وبينما كنت عائداً أدراجي شاهدتُ حيواناً ضخماً بيدَ أنني لم أميزْ حقيقته لأن الظلام بدأ يُرخي سدولَه فبقيتُ في شكٍّ من أمره ؛ فنزلتُ عن صهوة جوادي وأسرعتُ الخطا لأتحقق عما إذا كان ذلك الحيوانُ كلباً أو وحشاً من الوحوش . فما هي إلا هنيهة حتى ألفيته أمامي وهو يقتربُ مني وقد فغر فاهُ ، عند ذلك تبينتُ أن ما أرى ليس كلباً ولكنه ذئبٌ شرسٌ

مـاذا أنا فـاعلٌ ؟ فليس معي سـلاحٌ أدافع به عن نفسي بعـد أن تركتُ مسدسي على ظهر الجوادِ   أخذ هذا الوحشُ يقترب مني خطوةً خطوةً . لقد كان الهرب مستحيلاً فضلاً عن أنه ليس من عادة أهلي أن يتخلصوا من الأخطار بالأبُوقِ والفرار . فما كان مني إلاّ أن أدخلتُ جُمعَ كفّي في فمه المفتوح وأخذتُ أدفعها في حلقه حتى اختفت ذراعي بأسرها! ثم ماذا بعد ذلك ؟ هاأنذا أراني وجهاً لوجهٍ أمام هذا الذئب ، وماذا يحدث لو أنني أخرجتُ ذراعي في هذه اللحظة! ولكن بدلاً عن ذلك دفعتُ بقبضتي في جوفه وقبضتُ على أحشائه بيدي وجذبتُه إلى

الخارج كما يقلِبُ أحدٌ منا قفازَه! وهكذا قلبتُ ذلك الذئب فأصبح خارجُه داخلَه وداخلُه خارجَه! وتركتُه هكذا ملقىً على الأرض حتى وجده البستاني في اليوم الثاني!

لم أخبر أحداً بما جرى ، وإن كان البستاني قد أشاع الحكايةَ التي عدَّها الجميع مخاطرةً عظيمةً ؛ وإني أريد أن أذكر بهذه المناسبة أن هذه الطريقة لم أستخدِمْها في كلِّ مناسبة ، كما جرى لي مرة في مدينة بُطْرُسْبرج



حدث مرةً أن كنت أسير في بعض شوارع بُطرسبرجَ الضيِّقة فإذا بكلبٍ هائجٍ مصابٍ بالصرع يتبعُني ولم يكن معي من سلاحٍ أدافعُ به عن نفسي ، فلمْ يكن بد من أن أسرع الخُطا ولكي أيسر على نفسي سرعة العدْو نزعت معطفي وألقيته على الكلب ليتلهَّى به فبذلك تتاحُ لي الفرصة لأهرب وهذا ما حدث ؛ ثم التجأت إلى بابٍ مفتوح بينما أخذ الكلب الهائج ينفثُ غضبه في المعطف ؛ عند ذلك تجمع الناس وأخذوا يضربون الكلب حتى قتلوه ثم استخلصوا معطفي من بين أنيابه وقد أصيب بتمزيقٍ طفيفٍ ، ولما عدتُ إلى البيت أرسلتُ بالمعطف إلى الخياط فأصلح ما أصيب به من تمزيقٍ ، ثم أعاده خادمي إلى مكانه في صِوان الملابس

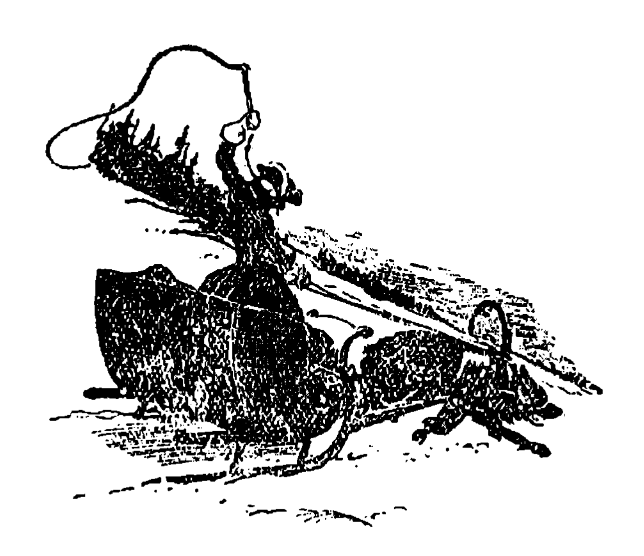
في صباح اليوم التالي استيقظتُ على صياح الخادم الذي أخذ يولول قائلاً «سيدي البارون! سيدي البارون! لقد أصيب معطفك بمرض الكَلب» ففزعتُ من سريري ووضعتُ عباءةً على كتفي وتبعتُ الخادم إلى حجرة الملابس وهناك وياللعجب! وجدتُ معطفي وقد أصيب بالكَلِب وحوله ملابسي التي هاجمها وقطَّعها إرباً إرباً ثم رأيته أمام عيني يهجم على حلةٍ جديدة يحاول افتراسها وأخذ في تمزيقها بوحشيةٍ كبيرةٍ . فما كان مني إلا أن ختمتُ هذه المأساة بطلقةٍ من مسدسي وأمرتُ بحرق هذه الملابس خوفاً من أن تصاب كذلك بعدوى الكَلب

إنني ألمح على وجوهكم أيها الأصدقاء مِسْحةً من الشكِّ كأنكم في ريبٍ مما رويته عليكم ، ولكنني أقسم لكم بشرفي كفارسٍ بأنني لم أعدُ ذكر الحقيقة

وبمناسبة حكاية الذئب التي قصصتها عليكم أريد أن أروي لكم قصة أخرى عن الذئاب الثلجية حدث مرةً أثناء وجودي في روسيا أن كنتُ عائداً إلى بطرسبرج على زحَافةٍ ثلجيةٍ يجرها جوادٌ على غير عادة تلك البلاد ، حيث تقوم الكلابُ بهذه المهمة ، وما أن اقتربتُ من المدينة

حتى برز لي ذئبٌ كبيرٌ شرسٌ قد أطار الجوعُ صوابه فراح يتلمَّس فريسةً جديدةً . فلما رأيت ذلك وقد كنتُ لا أملك سلاحاً لم أجدْ بدّاً من أن أرتمي على بطني في قاع الزحّافة ، ومن العجيب أن ما تخيَّلتُه حدث فعلاً . ذلك أن الذئب -وَقد تملَّكته- الشراسة وثب على مُؤخَّر الفرس وأخذ يلتهمها فلما أمضَّها الذعر والألم راحت تسابق الريح بأكثر من ذي قبلُ ، فلما رفعتُ رأسي رأيت هذا المنظر العجيب

رأيت الفرس الدامية وقد التهم الذئبُ نصفها الخلفيّ بينما هذا الوُحش يطاردها وينهش بقيَّتها ، فما كان مني إلا أن وقعتُ عليه بالسوط من الخلف وهو يحاول بكل قوته أن يتقدَّم إلى الأمام ، فكان من ذلك أن سقطت الفرس الميتة إلى الأرض وإذا بالذئب يحل مكانها بعد أن هوتْ عُدَّةُ الفرس على عاتقه!



لم أحاول بالطبع أن أدع الفرصة للذئب ليتنبَّه لما حدث ، بل طفِقت أهوي عليه بالسَّوط دون أن أتوقف وراح هو يجرُّ الزحَّافة ويسابق الريح سباقاً حتى دخلنا بطرسبرج فكان منظراً فريداً ؛ فلما وقفتُ أمام قصر المارشال مونيج وأطلَّ علينا من نافذة القصر ورأى عربتي يقودها ذئبٌ متوحشٌ لم يتمالك نفسه من الضحك

وإني لأذكر واقعةً طريفةً حدثتْ لي مثل هذه الحكاية ؛ ولكن يكفيكم يا رفاقي الأعزاء ، ما حدَّثتكم به هذه الليلة

الليلة الخامسة

من بين مغامراتي الروسية سأقصُّ عليكم هذه الليلة حكايةً واحدةً ، جرتْ وقت أن عُيِّنتُ قائداً لفرقةٍ من فِرَقِ الهوسار إبَّان الحرب التركية واستوليتُ بذلك على حصن « إكْزاكوف » وكانت الحامية التركية كبيرة العدد إذا قيست بعدد أفراد فرقتي

فكَّرتُ في حيلةٍ أستثير بها الفزع في نفوس أعدائي ، وذلك أنني أمرت رجال الجناحين أن يُسفوا الرمال حتى كادت تحجبهم عن الأعين ، بينما تركتُ قلب الجيش الذي عزَّزْته بأكبر عددٍ من الرجال ظاهراً للعيون فلما اقتربنا من الأعداء ، وأبصروا الزَّوابع الرَّملية التي تُغطِّي الجناحين هالهم الأمر وظنُّوا أن وراء الأكمة ما وراءها ، وأننا نزحف بأضعاف عددهم ، فهدَّ ذلك من ثقتهم بأنفسهم ورُحنا نصيح « هورا » حتى غطى زعيقنا على صياحهم المعروف « الله يا الله »

سرعان ما تراجع الترك ، ثم استحال تراجعهم إلى فرارٍ ، فلما وصلنا إلى الحصن وجدناهم يتركونه من بوَّابته الجانبيَّة ؛ وكان من الطبيعي أن أكون أول من دخل الحصن ، وذلك لأن نشوة الظفر كانت قد تملكتني فضلاً عن أن جوادي كان سبَّاقاً يسير دائماً في المقدمة وما أن تخطيت بوَّابة الحصن الكبرى وقد هرب منه آخر جندي من

الأعداء ، حتى انقفلتْ من ورائي بطريقةٍ آليةٍ ، فسرت إلى رحبة الشوق حيث رأيت أن أجمع هناك شتات فرقتي

وكانت دهشتي عظيمة عندما وجدت نفسي وحيداً في الرحبة إذ كانت خاليةً من كل إنسانٍ ، وبينما كنت أفكر في ذلك وقد طال بي الوقوف ، رأيت أن أنتهز الفرصة لأسقي حصاني الذي كان قد أنهكه التعب والعطش . فسرتُ إلى حوض ماءٍ قريبٍ وتركتُ الحيوان المسكين ليأخذ كفايته من الماء . وهنا جرت حادثةٌ غريبةٌ

تركتُ حصاني يُروي غُلّته من الماء بينما أخذتُ أفكِّرُ في أمر جنودي ، ثم مضت فترةٌ من الزمن ثم أخرى ثم أخرى والحصان لم ينقطع عن الشُرب فعجبْتُ لذلك جدّ العجب ، فلما رفعتُ عيني عرضاً وجدتُ – ويااللغرابة– أنني كنت لا أمتطي إلا نصف حصانٍ فقط وأن النصف الخلفي كان مفقوداً! لذلك كان الماء الذي يشربه الحصان من فمه يخرج من نصفه الخلفي المقطوع دون أن يروي له غلّةً!



وبينما كنتُ حائراً في أمري إذا بخادمي يبرُزُ من شارعٍ جانبي وبعد أن قدَّم إليَّ فروض الاحترام والتهاني لهذا النصر المبينَ فسَّر لي سرَّ اختفاء نصف جوادي

وما حدث هو أنني عندما كنت أطارد الأعداء عند بوَّابة الحصن سقطت هذه فوقي فشطرت جوادي نصفين . ولما كنت مشغولاً بأمر هؤلاء الترك الفارِّين أمامي لم أتنبَّهْ لما حدث بل طفقتُ أتبعهم هكذا حتى طردتهم من البوَّابة الخلفيَّة

ثم إنني عُدتُ بعد ذلك إلى البوَّابة حيث وجدتُ النصف الخلفي لحصاني مكانه وهو حيٌّ يتحرك ، فما كان مني إلا أن بعثتُ في طلب صانع السروج الذي خاط نصْفَيَ الحصان وضم الواحد منهما إلى الآخر ببراعةٍ عجيبةٍ ، غير أنه لم يجد سوى بضعة فروعٍ من شجر الغار للقيام بمهمته هذه ؛ فكان من ذلك أن نبتت هذه الفروعُ فيما بعد وامتدَّت جذورُها في جسم الحصان ، ثمَّ اخضرَّت وتكاثفتْ أوراقُها حتى أنني كنت أستظلُّ بها أثناء هذه الحملة وإبان حملتي الثانية في تركيا

ففي هذه الحملة الأخيرة تمكَّن السير عسكر بيالي باشا من تضييق الخناق على الجيش الروسيّ حتى كاد يفتك به ، إذ دفعه أمامه إلى برزخ بيركُوب عند رأس شبه جزيرة القِرْم لكي يقطع عليه المَدَد والمواصلات لقد كان موقِف الجيش الرُّوسي ميؤوساً منه لولا ما قمتُ به من محاولاتٍ جريئةٍ لتعرُّف مواطن الضَّعف في المعسكر التُّركي ، لهذا تمكنَّا من القيام بمناوشةٍ لتحويل أفكار القائد التركيِّ وتبعْنا ذلك بهجومٍ كان فيه النصر لنا

وإنني لم أذكرْ هذه الحكاية إلا لما تبعها من نتائج تتعلَّق بي وذلك أنني بعد هذا المجهود الشاق المتواصل أثناء القتال أحسستُ بعجزٍ في ذراعي مما اضطرَّني إلى وضعها في جبيرةٍ مدَّةً من الزمن ، فكانتْ هذه علامة تمكَّن بها التُّرك من معرفة مكاني فأخذوني أسير حربٍ

الليلة السادسة

رفاقي وأصدقائي الأعزاء

وعدتُكم أن أتحدَّث إليكم هذه الليلة عما جرى لي أثناء اعتقالي في استنبول ، وها أنذا أبرُّ بوعدي لكم

لما كنتُ من كبار الضباط لم يكن مصيري مصير غيري من الجنود ، بل عُيِّنتُ للخدمة في حدائق السلطان ، وعلى التحقيق عُيِّنتُ حارساً للنحل السلطاني! وكان هذا العمل ولا شكَّ مثيراً للسَّأم والملل لضابطٍ مغامر من الهوسار مثلي ، ولكنْ على الإنسان أن يتعلَّم

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى عرفتُ أسرابَ النَّحل التي وُضعتُ في حراستها نحلةً نحلةً ؛ فكنتُ في كل صباح أخرجُ بها إلى المروج الخضراء ، حيث أقضي اليوم أرعاها وألحظُها ، فإذا أمسى المساءُ عدتُ بها إلى حظائرها ، لهذا كان عَسَلُها وفيراً شهياً

وفي ذات مساء افتقدتُ نحلتين من هذا النَّحل ، فبينما كنت أبحث عنهما هنا وهناك وقعتْ عيني على دبّيْن يحاولان اختلاس العسل المخزون ، ولما لم أجد شيئاً في يدي أطردهما به قذفتهما بفأسٍ فضيَّةٍ صغيرةٍ (وهي الشارةُ الرسمية لكل بستانيٍّ يعمل في الحدائق السُّلطانيَّة)

ومع أنني لم أصِبْ الدُبَّيْن إلا أنهما فزِعا وهربا . ولم أدرِ من أين أقبل هذان الدُبان إلى استنبول أمِنَ البلقانَ ؟ أمِن برناس ؟ أمِن هِليكون ؟ وعلى كل حالٍ فقد كان ذلك سبباً لحكايةٍ عجيبةٍ

وذلك أنني عندما قذفتُ الدُبين بالفأس الفضيَّة بشدَّة أخذَت الفأسُ من عظم السُرعة ترتفع في الفضاء ثم ترتفعُ ، ثم ترتفعُ ، حتى نطحت القمر وتسمَّرتْ به!

والآن كيف السبيلُ إلى استرجاع الفأسِ ؟ وأي سلَمٍ يرتقيه الإنسان من الأرض حتى يصل إلى القمر ؟

عند ذلك تذكَّرتُ أنني أحمل في جيْبي منذ بضعة أيام حبّة فولٍ أهدانيها بستانيُّ القصر ولعلّه جاء بها من بغداد أو وجدها في قبْرٍ من قبور الأولياء . فأسرعتُ وبذرتُها في الأرض وأنا لا أكاد أصدِّق ما رَوَى لي عنها عمر قاسم البستانيُّ العجوزُ عن سرعة نموِّها وازدهارها . فماذا حدث ؟

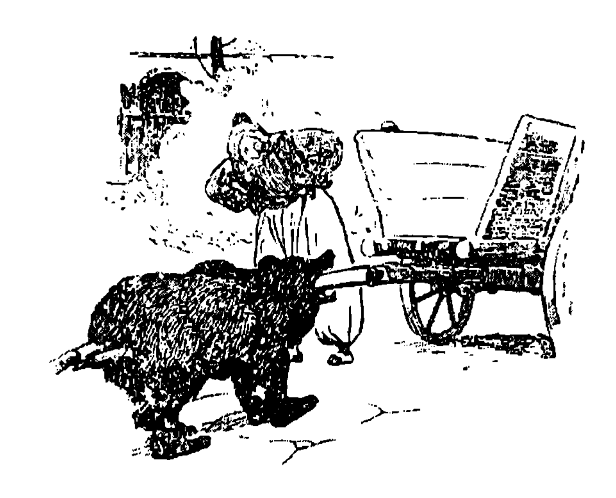
ما أن وضعتُ هذه الحبة في الأرض حتى وجدتها تبزغ وتتفتّح ثم تبدو ساقُها وترتفع ثم تورِق وإذا بها أمامي شجيرةً كاملةً ثمَ إذا بها تتمدَّد ثم ترتفع في الفضاء ، وما هي إلا بضع ساعاتٍ حتى امتدَتْ فروعُها والتصقت بالقمر ، فما كان مني إلا أن ارتقيتُ عليها حتى وصلتُ بدوري إلى سطح هذا الكوكب!

وهناك وجدتُ أمامي معضلةً عويصةً إذْ كان من العسير عليَّ أن أبحث عن فأسٍ فضيةٍ صغيرةٍ ملقاةٍ على وجه القمر الذي كان يلمع بدوره كالفضة المجلوَّة ، ومع ذلك فقد تمكَّنتُ من العثور على ضالَّتي بعد بحثٍ ساعاتٍ طويلةٍ . ولكنَّ مشكلةً أخرى أشدُّ تعقيداً اعترضتني وذلك أن فروع شجرة الفول هذه ما أسرع أن جفَّتْ بفعل حرارة الشَّمس الشَّديدة فتساقطتْ وتركتني وحيداً منبوذاً على سطح القمر

كان من حسن حظّي أن وقعت الفأس على كومةٍ من الألياف

والأغصان الرفيعة التي توفَّرتُ على جدْلها ، ففتلتُ منها حبلاً طويلاً متيناً ربطتُ طرفهُ بأحد قرنيَ القمر ، وتعلَّقتُ به ممسكاً إيّاه بيدي اليُسرى ، بينما قبضتُ على الفأس بيدي اليمنى . وكنت كلما أتدلّى مسافةً أقطع طرف الحبل فوق رأسي وأصله من تحتي ، وعلى هذا النحو من القطع والوصل أخذت في الهبوط شيئاً فشيئاً ؛ حتى إذا قاربتُ الوصول إلى الأرض أصبتُ مع الأسف بكارثةٍ وأنا على بُعْدِ ميلين من سطح الأرض ، فبينما كنتُ جالساً علي بعض السُّحُب إذا بالحبل ينقطعُ فأهوي فجأةً وبسرعةٍ هائلةٍ إلى سطح الأرض حتى كدتُ أفقد وعيي

وعندما ثُبْتُ إلى رشدي وتلفتَ حولي وجدتُ أن السقطة كانت شديدةً ، حتى أنني انغرستُ إلى مسافة بضع مئاتٍ من الأقدام في جوف الأرض . وإن هذه الحادثة كثيراً ما يجعلها رواةُ أخباري ومغامراتي موضوعاً لأكاذيبهم ومفترياتهم! وما حدث فعلاً هو أنني عمدْتُ إلى نحت عشراتٍ من الدرجات في الحجر لأخلّص نفسي من هذه الهُوَّة السحيقة . وإن كان البعضُ يأخذ عليَّ الغباءَ لأني استخدمتُ أظافري في نحت هذه الدرجات بينما كنتُ أحملُ فأساً في يدي ، ولكنني لا أجدُ ضرورةً لمناقضتهمْ أو لمخالفة حقيقة الواقع!



وبمناسبة ما قصصته عليكم عن الدببة أروي لكم حكايةً أخرى تذكّرتُها . فأنتم تعرفون كيف نصيد الذبابَ عندنا باستخدام شريطٍ مدهونٍ بالعسل ، فهذه الطريقةُ أوحتْ إليّ باستخدامها في صيد الدِّبَبة وتفصيلُ ذلك أنني دهنتُ العارضةَ الخشبيّةَ لعربة نقلٍ نستخدمها في الحدائق بشيء من العسل ثم اختفيتُ وراءَ بعض الأخشابِ ، وما أن أرخى الليلُ أستارَهُ حتى ظهر دبٌّ وراح يطوف حول العربة عدة مراتٍ حتى اطمأنَّ بأن لا خوف ولا خطر منها ، ثم تنبَّه إلى وجود العسل الذي -كما نعرف- يستهوي الدببة فاقترب من طرف العارضة الخشبيّة وأخذ يلحسُ العسلَ ثم يدفعُ فمَهُ المفتوحَ شيئاً فشيئاً حتى -وقد استهوته حلاوة العسل- نفذت العارضة من حلقه وبطنه وبرزتْ من مؤخَّرِه! فلما وثقتُ من قيده هذا وضعتُ وتداً في طرف العارضة حتى أمنعه من الإفلات . وفي صباح اليوم التّالي بينما كان جلالةُ السلطان يتنزَّه في الحديقة ، لمحَ هذا المنظرَ ، فما كان منه إلا أن تهالك ضحكاً!

وكانت هذه الحادثة فرصةً ليتعرَّف السلطان عليَّ ، وإن كانت الفرصةُ لم تطل كثيراً لأنه حدث بعد ذلك أن عُقِدَ الصلحُ بين النّمسا وتركيا وتلا ذلك عقد الهدنة بين روسيا والباب العالي ، وكان من نتائجها تبادلُ الأسرى بين الفريقين وهكذا عدتُ إلى بلادي

ولم يخطر لي على بالٍ إذْ ذاك أنني سأعودُ إلى استنبول مرةً أخرى في القريب العاجل ؛ وكانت عودتي إلى الوطن على ظهر عربة خيلٍ لا سيراً على الأقدام كغيري من الأسرى العاديين نظراً لكوني من طبقةِ الضباطِ

حدث أثناء هذه الرحلة أن كنا نشقُّ طريقنا في ممرٍّ جبليٍّ ضيقٍ لا يكاد يتسعُ إلا لمرورنا وقد ذكَّرت سائق العربة بأن ينفُخَ في نفيره حتى يُلفِتَ أنظار القادمين من الجهة الأخرى تلافياً لما قد يحدثُ من تصادمٍ إذ أن الطريقَ لا يتسع لأكثر من عربةٍ واحدةٍ . وقد نفَّذَ الرجلُ رغبتي

بالفعل فأخذ ينفخُ في نفيره بكلّ عزمه ، ولكن مع ما بذل من مجهودٍ لم ترتفع نغمةٌ واحدةٌ من البوق وكان هذا أمراً عجيباً لا يمكنُ تفسيرُه ومن سوء الحظّ أن أقبلت في تلك اللّحظة بضعُ عرباتٍ محملةٍ بجذوع الأشجار واعترضتْ سبيلنا ، ولم يكن من وسيلةٍ للتخلُّص من هذا المأزق ؛ عند ذلك طرأتْ عليَّ فكرةٌ!

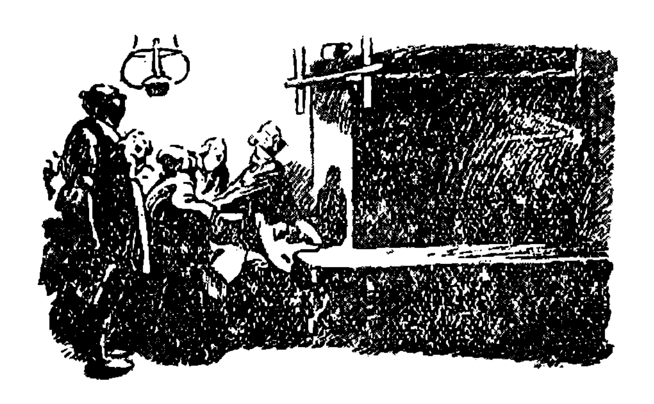
وثبْتُ من العربة وحللْتُ الخيلَ منها ، ثم انحنيتُ وأمسكتُ بها ما بين عجلاتها الأربع ، ورفعتها إلى عاتقي بما عليها من أحمالٍ ثم قفزتُ فوق الحاجز الجانبيِّ الذي يبلُغ ارتفاعُه تسعةَ أقدامٍ حيثُ تركتُ العربة بأحمالها في أمان ، ثم عُدت وفعلتُ بالخيل مثلَ ما فعلت بالعربة ، وهكذا أصبحتْ الطريقُ خاليةً فمرَّتْ العرباتُ القادمة في حال سبيلها حتى إذا كان هذا عدتُ بعربتنا إلى الطريقِ ، ثم حملتُ الخيل ثانية إلى مكانها

أتعرفون ما حدث عندما حطَطْنا رحالَنا في بعض الخاناتِ للراحة ؟ هناك إلى يمين المدفأة الخضراء الكبيرة وضع سائقُ العربة قُبَّعته كما علَّق على الجانب الآخر نفيرَه ، وما أن انقضت هنيهة حتى انبعث نغمٌ متكررٌ من النفير ، وتلت ذلك النغمات التي كان يردّدُها السائق والتي لم تنبعثْ من نفيره في الطريق ، لأنها كانت قد تجمدتْ من شدة البرد في ذلك اليوم!

ولم ينتهِ الأمرُ عند هذا الحدّ بل إنه ما من نغمةٍ أو أغنيةٍ حاول السائقُ أن يرتِّلها في ذلك اليوم كله وفشلَ في ذلك بسببِ تجمدها في فتحة نفيره إلا وانطلقتْ من النفير وهو معلقٌ إلى جانب المدفأة ، فسمعنا مزيجاً من الأغاني الروسية الشعبية كأغنية

« مِنْكا! أيتها الجميلة ، إنني أودّعُك . »

« أرأيتِ هذه الورداتِ الثلاثَ على خدِّكِ »



ودون أن يلمس السائقُ النفير بشفتيه ارتفعتْ في جوِّ المكان الأناشيدُ الحماسيةُ والأغاني العاطفيّةُ مثل «أوجستينُ أيها الحبيبُ .» «الأمير أوجين الفارسُ النبيلُ» ثم «صياد كُورفَاطَبْ» ثم اختتم ذلك بأغنية المساء «والآن تنامُ الأحراشُ والأشجارُ»

من هذا ترونَ كم كان صديقُنا السائقُ راغباً في تسليتنا بأغانيه! ومن المحتمل أن أحداً منكم لم تُتَحْ له الفرصةُ ليمُرَّ بمثل هذه التجربةِ إذ أن البرد في ألمانيا ليس من الشدة والقسوة بحيثُ يجعلُ الأنغامَ تتجمدُ في الهواء إذ أن ذلك يحتاجُ إلى درجةٍ خفيضةٍ جداً من البرودةِ

وقد حدث لي كثيراً أن التقيتُ ببعضِ الرحالةِ الذين كانوا يضايقونني بما يقصّونه عليّ من تجاربَ وحوادثَ لا يصدِّقُها العقلُ ولا يقبلُها المنطقُ السليمُ . وإن خير عقابٍ لهؤلاء الكذّابين أن نُديرَ أكتافَنا عنهم ونمتنع عن مُجالستهم ، أما إذا سجلوا مفترياتهم في كتبٍ فخيرُ عقابٍ أن يطويَ القارئُ مثل هذا الكتاب بعد أن يحدجَه بنظرةِ استخفافٍ وزرايةٍ!

وعلى النقيض من هذا إذا كان راويةُ الأخبارِ رجلاً نبيلاً صادقاً بينما المستمعون له يقابلون حديثَه بهزٍّ الأكتاف وبنظرات الشكِّ والريبةِ ؛ لهذا أستميحُ أولئك الذين يتشكّكون في حقيقة مغامراتي عذراً راجياً منهم أن يتغيَّبوا أثناء اجتماعنا القادم ، إذ سأروي عليكم بعض مغامراتي البحرية التي تفوقُ في غرابتها جميعَ ما قصصتُه عليكم من مغامراتي البريةِ

الليلة السابعة

سأعود بكم هذه الليلة يا أصدقائي الأعزّاء ؛ إلى الماضي البعيد

لم أكدْ أتعدّى أيام طفولتي وأدخلُ في مرحلة الفتوّة حتى عَرَضَ عليّ أحد أقرباء والدتي أن أصحَبَه في رحلة بحرية إلى جزيرة سيلان[1] حيث كان له عمٌّ يعمل حاكماً لهذه الجزيرة . فأثارتْ هذه الدعوةُ في نفسي رغبةً دفينةً للسّفر والسّياحة

كان علينا قبل أن نركبَ البحرَ أن ننتظِرَ بعض الوقت في مدينة أمستردام حيثُ كان قريبي في خدمة الحكومة الهولنديَّة التي عَهِدتْ له بحمل بعض الوثائق والتعليمات إلى حاكم الجزيرة المذكورة . وقد يكون من المستحبّ أن أقصَ عليكم شيئاً عن أخبار زيارتي لمدينة أمستردام وما شاهدته فيها من طرائف ، أو أن أصِفَ لكم بعضَ مشاهداتي في لندن التي وصلْناها بعد ذلك ونحن في الطَّريق إلى الشرق ، بيد أنني أتركُ ذلك إلى مناسبةٍ أخرى

أما اليوم فإنّي أكتفي بالكلام عن شخصية ممتازةٍ عرفتُها في العاصمة

---

(١) كانت جزيرة سيلان مستعمرة هولندية إلى عام ١٨١٥

الإنجليزية ؛ هي شخصية سائق العربة الملكيّة الذي أعتقدُ أنه يمثّلُ -ولا شكَّ- الروحَ الإنجليزيّة حقّ تمثيل ، والذي قد استرعى نظري بصفة خاصة وأثّر منظرُهُ عندي أبلغ تأثير . ولم يكن ذلك لما كان يضعه فوق رأسه من شعرٍ مستعارٍ كانت تتدلّى جدائله علي كتفيْه ، بل لأن صدره كان مُغطّىً بلحيةٍ كثيفةٍ تصِلُ إلى ركبتيه وقد قُصَّتْ قصّاً أنيقاً على هيئة الشعار الإنجليزي

ولو أن مَلِكَ الإنجليز -وهو في عربة التشريفة الكبرى- كان مطمح العيون لِما كان يرتديه من فاخر الزيّ وهو في طريقه إلى دار البرلمان غير أن عيوني كانت مسمّرة إلى سائق العربة الذي كان بين الفينة والفينة يُفرقعُ بسَوطِهِ في الهواء بطريقة فنيّة وينشُرُ حوله جواً من العظمة أمّا عن رحلتي البحرية فلا أريدُ أن أتحدّث عنها كثيراً ، إذ أنه ما من مُسافر على سطح الماء إلا وصادفتْهُ رياحٌ وعواصفُ ، حتى أن وصفاً لرحلته لا يكاد يخلو من ذكر الأنواء والزعازع ، لهذا فلن أتحدّث إليكم عما صادفت من شدّة أثناء هذه الرحلة ، وأكتفي بذكر بعض مغامراتي في الصّيد أثناء وجودي في جزيرة سيلان

خرجتُ في يوم من الأيّام في صُحبة الابن الأكبر لحاكم الجزيرة وأخذنا نتجوّلُ في مكانٍ لا يبعد كثيراً عن ساحل البحر ، وكان صاحبي هذا شاباً قوياً قد تعوّد الحياة في البلاد الحارّة فلم يجهده السيرُ تحت الشّمس المُحرقة ، بينما التجأتُ إلى بعض الأحراش للقيلولة في ظِلالها فحرارة هذه البلاد لا نطيقها نحن معشرَ الأوربيين ، ويكفي أن أقول إن أزرار معطفي المصنوعةَ من الرّصاص ذابتْ بفعل الحرارة الشّديدة وإن بندقيّتي أصبحت شديدة الحرارة حتّى كادت تتوهّجُ من تأثير الشّمس وكان البارودُ يتفجرُ دون أن أضغطَ على زِنادِ البندقيّة ، وكان العرقُ يتصبّبُ من جبيني كجداول الماء فلا تنقضي دقيقةٌ حتى أبلِّلَ منديلي ثم أنشرهُ على قصبةِ البندقيّة المتّقدة ، وكنتُ أسمعُ نشيشَ الماء إذا ما لَمسَ المنديلُ المبللُ المعدنَ المتوهّجَ

ثم سرْتُ منفرداً لأتفرَجَ على عجائب الطبيعة حتى وصلْتُ إلى نهر متدفق ، وما إنْ حدَّثْتُ نفسي بالجلوس قليلاً على ضفته حتى استرعى سمعي صوتٌ غير مألوف ، فالتفتَ فإذا بأسدٍ هائل ضخم الجثّة واقفاً خلفي ينظرُ إليَّ شزراً ، ولم أفكّر طويلاً ، بل جذبتُ بندقيَّتي وأطلقتُها على الفور في وجه هذا الحيوان الكاسر وإن كنتُ أعرف أن ذلك لا يجدي فتيلاً إذ كانت محشوّةً برصاص لصيد الطيور . لقد كان ذلك منّي جنوناً ، لأن الأسد سكن بُرهةً في مكانه ثم هزَّ رأسه الكبير وزأر زئيراً هائلاً ، واستعدَّ للوثوب ، ولا أكذبكم الحقيقة أنني فقدتُ رأسي حينما فكّرت في الهرب ، لأنه من المخجل فعلاً أن فارساً مثل « مونشهاوزن » يُسلم نفسه للفِرار! ولكنني ما كدت أدير وجهي وأخطو بضعَ خطوات حتى وجدتُ تمساحاً مرعباً ، وقد فتحَ فمه الواسع العريض مُستعداً لالتهام هذا الفارس!

تصوَّروا يا أصدقائي الأعزاء هذا الموقف المزعج! فمن خلفي يُقْعي أسدٌ يستعد للوثوب ، ومن أمامي تمساحٌ هائلٌ ، وإلى يساري نهرٌ ثائرٌ متدفقٌ ، وإلى يميني حرش تسعى فيه الحيّاتُ! ولو كان « هِرْكِيُوليسُ » في مكاني لما فعل أكثر مما فعلتُ إذ وقعتُ على الأرض وقد طار صوابي من الفزع ، إذ تأكدتُ أنني ميِّتٌ لا محالة إمّا فريسةً في فم التمساح وإما بين مخالب الأسد

وإني لأشكركم يا أصدقائي لهذه العاطفة النبيلة التي أراها مُرتسمةً على وجوهكم جزعاً منكم على مصيري! ولكن لا تيأسوا واطمئنوا فقد وقعتْ المعجزةُ إذ لم تمضِ لحظات منذ سقوطي على الأرض حتى سمعت صوتاً غريباً ، فلمّا رفعتُ رأسي قليلاً لأتعرّف جليّة الأمر رأيت -ويا للعجب- أن الأسد قد وثب فوق رأسي فوقع في فم التمساح! إنّه لمنظرٌ رائعٌ فعلاً أن ترى رأس الأسد وقد انحشر في زوْر التمساح! بينما حاول كلٌّ منهما طاقتَهُ ليتخلّصَ من الآخر فما كان منّي إلا أن وثبت كالبرق واستللتُ مُديةً كبيرةً وأخذتُ أطعنُ بها الأسدَ حتى سقط بجسمه الهائل عند قدميّ . ثمّ أخذتُ أهوي بمؤخر بندقيّتي على رأس

الأسدِ وأدفعهُ في حلقِ التمساح ، الذي أخذ يصرخُ من الألم   وبعد قليل عاد إليَّ صديقي ، فلما رأى ما فعلتُ تملَّكه العجبُ حتى أنه لم يصدِّق عينيه ، وذلك أنني تمكَّنتُ بطلقة واحدة من القضاء على هاتَيْن الفريستين

كان طول التمساح أربعة عشر قدماً وسبع بوصات ، ولما سمع حاكمُ الجزيرة بهذه المغامرة النَّادرة أرسل عربةً عليها جماعةٌ من الرجال الأشدَّاء لحمل الفريستين

أمّا التمساح فقد حُنِّطَ في الحال ، وهو مازال إلى اليوم من المشاهد الفريدة في متحفِ أمستردام . ومن اللّطيف أن مُلاحظَ المتحف إذا ما جاء ذكرُ مغامراتي هذه كثيراً ما يضيف إليها من عنده الشَّيءَ الكثير مما يقف له شعرُ السَّامعين فزعاً وخوفاً ؛ فمن ذلك قوله   إن الأسد قد اختفى بأكمله في بطن التمساح ، وإن البارون ذا الشهرة العالميّة (وهو يعنيني بذلك) ما أسرع أن حزَّ رأسَ الأسد بمديته حالما برز من مؤخر التّمساح كما قطع نحو ثلاثة أقدام من ذيل هذا الأخير!

وإنّني لا أريدُ أن أُعلِّق على هذا بكلمة واحدة ، إذ يُؤسفني جداً أن أسمع هذه الأكاذيبَ عني يلوكها مثلُ هذا الرجل الخبيث المُحتال كما أنه من المؤلم أن أرى في هذا العصر الذي نعيش فيه والذي تسوده الشكوكُ أن يُرتابَ في صدق فارسٍ يضعُ الشرفَ في المرتبة الأولى من حياته

الليلة الثامنة

عندما مررنا برأس الرّجاء الصالح ونحن في طريق عودتنا إلى أوربا . سألت القُبطان أن يميل بنا إلى جزيرة « سَنْت هيلين » . فتعجَّب من أمري وقال

« وما الذي يستهويكِ لزيارة هذه الجزيرة ؟ »

فقلت

« لا شيء أكثر من أن أعرف ما تحويه هذه الصخرةُ الشهيرةُ ؛ وإن كنتُ واثقاً من أنها لا تحوي شيئاً جديراً بالفُرجة ، إلا أنه من الصّعب عليَّ أن أمْحو الكثيرَ من الذكريات التي تفيض بها نفسي عندما أسمع اسمَ « سنت هيلين » ؛ هذه الصخرة الجرداء التي كانت في يوم من الأيام ذاتَ شُهرةٍ سياسيةٍ كبيرةٍ

وما أن اقتربنا من الجزيرةِ حتى التقينا بسفينةٍ إنجليزيةٍ ، أخذ أحدُ رجالها يُنادينا في بوقٍ كبيرٍ مُستفسراً عن اسم سفينتنا واسم قُبطانِها فظهر أن القُبطانَ الإنجليزيَ صديقٌ لقُبطاننا ، فدعوناه لزيارتنا حيث قضى في ضيافتنا بضعَ ساعاتٍ

ولما عاد القُبطانُ إلى سفينته أسرَّ إليَّ قريبي الذي تحدثتُ لكم عنه ؛ بأن سفينتنا ستُغيّر وجهتها إذ أنها كُلِّفتْ بحَمْل بعض الرسائل الهامّةِ إلى جُزُر الهند الغربيةِ

وقد رحبت بهذا التغيير المفاجئ إذ إنه أتاح لي الفرصة لأعرف حقيقة تيار الخليج الدافئ الذي كثيراً ما سمعت عن عجائبه ، وها قد حان الوقت لكي أتثبت منها بعيني رأسي

لقد كان الجوُّ حاراً لا يكاد يُحتمل ، وفي إبّان النّهار والشمسُ مُسَلّطةٌ على الماء تصلُ مياهُ المحيط إلى درجة الغليان ، حتى إذا ما أراد أحدُ المسافرين أن يطهو طعاماً ، من لحم أو بيض ، فما عليه إلا أن يغمسَه في هذا الماء الفائر وسُرعان ما ينضج

ومن غرائب هذا البحر صُنوفُ الأسماك العديدةِ التي تختلفُ شكلاً ولوناً وحجماً ، والتي راحت تسبحُ وتلعبُ حول السفينة وكنّا إذا اصطدنا بعضَ هذه الأسماك بالشَّص أو الشبكة فلا تلبثُ أن تفارق الحياة إذا ما قابلت الهواء وكنا نجدُها فوق ذلك مَطهوّةً معدة للأكل فنلتهمها في حينها دون انتظار ، وكان طعمُها مغرياً . وكنا نعجَبُ لأمرها شديدَ العجب ، ونتساءلُ « كيف يتسنّى لهذه الأسماك أن تعيشَ وتلعبَ في هذا الماء الذي في درجة الغليان! » ثم وجدنا الجواب على ذلك معقولاً مقبولاً ، فهذه الأسماك اكتسبت القدرة على احتمال الحرارة الشديدة بفضل العادة ، فالماء -كما نعلم- يسخن شيئاً فشيئاً وهكذا تعودت الأسماكُ احتمالَ الحرارة تدريجياً حتى تصل إلى درجة الغليان . فإذا اصطيدت وخرجت إلى الهواء البارد فإن الحرارةَ تنفذُ إلى داخل السمكة فتقضي عليها وتسوّيها في الوقت نفسه ؛ لهذا لم يكن في الأمر غرابة!

وفي أثناء عودتنا من جزيرة « نيوفَونْدلاند » إلى أوربا جرت لنا حادثةٌ تستحق الذكر ، ففي اليوم الثاني بعد أن تركنا هذه الجزيرة

اصطدمت سفينتُنا اصطداماً عنيفاً بشيء ظننَّاه في بادئ الأمر صخرةً ، ولكنْ عندما رجعنا إلى الخرائط البحرية لم نجد ذِكراً لصخورٍ في هذه المنطقة ، فلما أدْلينا الدّلو الذي نقيس به عُمق الماء إلى مسافة خمسمائة قصبة لم يصل إلى قرارٍ . وكانت الصدمة عنيفةً فتحطَمت الدفّةُ وتهشّم مُقدّم السفينة ، وفضلاً عن ذلك انفَلَقت الساريةُ الوسطى انفلاقاً رأسياً كلُّ هذا ونحنُ لا ندري سبباً لهذه الفاجعة

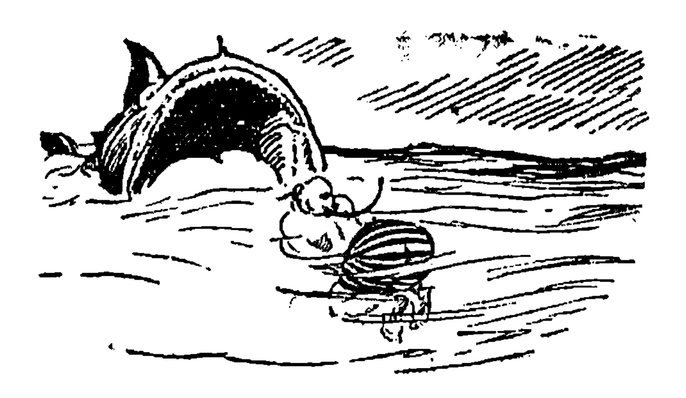
وأسوأ من هذا كله أنّ أحد الملاحين كان يعملُ إذ ذاك على رأسِ السّارية فما أن حدث الاصطدامُ حتى رأيناهُ مقذوفاً في الهواء ثم إذا به يسقط في الماء على مسافة ثلاثةِ أميالٍ على الأقل من السّفينة . ومع ذلك فقد واتاه الحظّ فنجا بنفسه من الهلاكِ المحقّق ، إذ تمكّن من أن يتعلّق بذيلِ إوزّةٍ بحريةٍ كبيرةٍ فأمسك برقبتها وأخذ يديرها هنا وهناك حتى اقتربَ من السّفينة بعد لأي وتعب ، وبذلك أنقذناه

ولأضربنَ لكم مثلاً آخر لشدّة هذا التيّار ، ذلك أن جميع المسافرين -دون استثناء- كانت تقذف بهم الأمواجُ فتدكُّ رؤوسهم في سقف المركب حتى أنّ رأسي من شدّة هذا الدّكّ هبط إلى أسفل بطني ، ومرّتْ بضعُ شهورٍ قبل أن يعودَ رأسي إلى مكانه الطبيعي من جسمي

وفي مرةٍ أخرى عرتنا الدهشةُ وتملكنا العجبُ عندما مررنا بحوتٍ كبيرٍ يسبحُ على وجهِ الماءِ ، ولعلّه كان نائماً ، وقد غمرتهُ أشعة الشمسِ بالدفءِ والحرارةِ ، ولعلّ اقترابنا منه قد أزعجه لأنه بدا عليه القلقُ ، وأخذ يُحرّك ذيلَهُ ويدقُّ به عُرض السّفينة ، ثم إنه جذبَ الهلبَ الذي كان مُعلّقاً في مُقدّم السفينة وأطبق عليه بأسنانه ثم سَحَبَنا وراءه نحواً من ثلاث عشرة ساعةً قطعنا في خلالها ما لا يقلُّ عن مائة ميلٍ تقريباً ، حتى اقتربنا من السّاحل الأمريكيّ ، فحدث -من حُسن الحظِّ- أن انقطع الهلبُ فراحت السفينةُ من شدّة الدوران تندفع إلى مصبّ نهرِ «لورانس» فانتهزنا الفرصةَ لإصلاح العطب الذي أصاب السّفينة ، ولما عُدنا في طريقنا إلى المكان الذي وقعت فيه الصدمةُ وجدنا حوتاً

ميتاً يطفو على وجه الماء ، بلغ طولُه ما لا يقلُّ عن نصف ميلٍ وكان من الطبيعي أن يستحيلَ علينا أن نرفع هذا الماردَ إلى ظهر السفينة ، فاكتفينا بتحطيم رأسه الضخم بعد مجهودٍ كبيرٍ ، فما كان أشدَّ سرورَنا عندما ألفينا في داخله ذلك الهِلْب المفقود كما وقعت أيدينا على سلسلةٍ حديديّةٍ طولها أربعون قصبةً في حُفرةِ سنٍّ من أسنانه اليسرى مصابةٍ بالتسويس . وإني أكتفي بهذا القدر من ذكر الغرائب التي صادفتُها في تلك الرحلة

وأثناء رحلةٍ لي في البحر الأبيض المتوسط تعرضْتُ لخطرٍ لا شك فيه . ففي عصر يوم من أيام الصّيف كنت أستحمُّ على الشاطئ قريباً من ميناء مرْسيليا وكان الجو بديعاً والماء دافئاً ، ولكنني لم يطل بي الاستحمامُ حتى ألفيتُ أمامي سمكةً هائلةً تندفعُ نحوي بسرعةٍ عظيمةٍ وهي فاغرةُ الفم



وكان من الطبيعي أن أفكر في طريقة أخرى غير الهرب ؛ لأنه من المستحيل أن يسابق أحدٌ كائناً من كان الأسماك في السّباحة ؛ ولهذا لم يكن لديَّ إلا أن أجمع جسمي إلى أقل حجم ممكنٍ ؛ فجذبتُ ساقيَّ إلى بطني ، وضممتُ ذراعيَّ إلى صدري ، وبذلك تحاشيتُ ما أصابُ به إذا ما انزلقتُ إلى فم السمكة المفتوح وارتطمتُ بأسنانها الشوكية وأنا مندفعٌ بقوة إلى جوفها ، وقد حدث ذلك بالفعل . فلمّا استقرَّ بي المُقام في جوف السمكة وجدتُ نفسي في شبه غرفة مغلقة دامسة الظلام ، وكانت الحرارةُ فيها لا تُطاق

ولا شكّ في أنني كنت ضيفاً ثقيلاً على هذه السمكة ، إذ أنها حاولتْ ما استطاعتْ أن تتخلص مني دون فائدة ؛ وكانت كلّما تتلوّى من الألم كنتُ أعملُ على زيادة مضايقتها ؛ فكنتُ أثبُ وأتأرجحُ وأرقصُ ، وكان كل ذلك يزيدُ من متاعبها . ولما لم تستطع السمكة احتمالاً سبحتْ إلى وجه الماء فبدا نصفها يلمع تحت أشعة الشمس وسرعان ما تنبَّه لها جماعةٌ من الصيادين الإيطاليين . فأحاطت بها سفينتُهم وأهووا عليها بالخطاطيف فقضوا عليها في بضع دقائق . وقد عرفتُ من حركاتها التشنجيّة التي تقوم بها أنها كانت في صراع مميت . فلما سكنت حركاتُها وثقتُ من أنها فارقت الحياة

أسرع الملاحون وحملوا السمكة إلى ظهر سفينتهم وأخذوا يتشاورون عن الطريقة المثلى لشقّ بطنها بحيث لا يضيع من زيتها شيءٌ ، ولما كنت أعرف اللغة الإيطالية أصابني الهلع خوفاً من أن تخطئ سكاكينهم فتُصيبني بسوءٍ وأنا في جوف السمكة ، فانبطحت على بطني وامتنعتُ عن الحركة ، وإن كان قلبي دائم الخفقان وكان من حُسن حظِّي أنهم بدؤوا عمليتهم الجراحية هذه من ظهر السمكة ، فما أن شقّوا جدار البطن فوق رأسي ونفذ ضوء الشمس إلى مكاني حتى هزّني السرورُ فرحتُ أغني وأنشدُ بعض الأغاني الإيطالية التي كنتُ أعرفها

فلما سمع المّلاحون هذه الأصوات منبعثةً من جوف السمكة أخذوا

يصيحون ويصخبون من الفزع ، وفي أثناء ذلك كنت أشق طريقي إلى الهواء ، وما أن رأى أولئك الملاحون آدمياً يخرج بينهم حيًّاً من جوف السمكة وهو يرتدي ملابس عجيبةً حتى ازداد صياحُهم واشتدَّ فزعهم

وبعد أن هدأت دهشة هؤلاء الصيَّادين قدّموا إليَّ بعض الطعام والشراب ورحتُ أقص عليهم حكايتي من أولها ، وبعد أن شكرتهم على نخوتهم وضيافتهم وثبْتُ إلى الماء عائداً إلى الشاطئ لأبحث عن ملابسي التي خلّفتها هناك فألفيتُها كما هي ؛ ولما نظرتُ إلى ساعتي وجدت أنني قضيت نحواً من ثلاث ساعاتٍ حبيساً في جوف السمكة ؛ وإنه لوقتٌ طويلٌ أيها الأصدقاء! إذا تذكرنا المكان الذي كنتُ أقيم فيه ، والهواء الفاسد الذي كنتُ أتنفسه!

الليلة التاسعة

أصدقائي الأعزاء ورفاقي الصيادين

بعد أن قصصت عليكم أخبار مغامراتي في البحر في ليلتي السابقة بقي عليَّ أن أصف لكم كيف قفلتُ راجعاً من إيطاليا إلى فيينَا ، وكيف سافرتُ من هذه المدينة إلى القُسطنطينيّة في مهمةٍ دبلوماسيةٍ لمقابلة السلطان ، لهذا أعتذرُ إليكم إذا قصرتُ عن ذكر ما جرى إبَّان تلك الرحلة وإن كنتُ أرجو أن أعود إلى تفتيق أسرارها فيما بعدُ

ولو أنَّ حوادثَ هذه المهمة قد مضى عليها وقتٌ طويلٌ ، بيد أنه مازال على قيد الحياة كثيرون ممن اتصلوا بها ، وليس من اللياقة في شيء أن أعرض لهذه الحوادث التي تتصلُ بأسماء شخصياتٍ كبير. خطيرة الشأن

وأكتفي بأن أذكر لكم في هذه الليلة ، أنني أُرسِلتُ من بعض المقامات العُليا كممثل ديبلوماسي للقيام بمفاوضات مع السُلطان و حملت أوراق اعتمادٍ رسميةٍ تُرخِّص لي القيام بهذه المهمة

لهذا سافرتُ من فيينَا حتى إذا ما وصلت إلى القسطنطينيّة قوبلتُ

بحفاوةٍ بالغةٍ واستُقْبِلتُ استقبالاً رائعاً . وقد تمكنت بمساعدة سفراء روما وروسيا القيصرية وفرنسا في القسطنطينيّة من أن يكون تقديمي إلى عظمةِ السلطان في استقبالٍ رسميٍّ . وقد سلّمتُ أوراق اعتمادي الرسميّة إلى المترجم الذي كان من الضروري أن يقدّمها إلى الصدر الأعظم ، وهو الذي يرفعُها إلى الجناب العالي . وكم كانت دهشةُ ذلك الحفل الحاشد من السُفراء والسّاسة والعظماء ورجال القصر ، عندما قطع السلطان على المترجم خُطبة التّرحيب ، ووقف مادّاً ذراعيه إليَّ وهو يقول



– مونشهاوزن أهو أنت أيها الرّجل الجسور ؟ إننا أصدقاء خلصاء ومعارف منذ زمن طويل لا نحتاج إلى خطبة لكي نتعارف ، أهلاً بك أيها الرجل الفتى ومرحباً بقدومك!

وليس غريباً أن تُحدِثَ هذه المفاجأةُ أثرها بين سُفراء الدُول لاسيَّما كبيرُهم (دُوايان) إذ كان من نتائج ذلك أن احتللتُ المقام الأول في البلاط السُلطاني وأصبحتْ صلتي بجلالة السلطان تختلف عن صلتي به عندما كنت أسير حربٍ في اسطنبول منذُ بضع سنين حين وُكِلَ إليَّ إذ ذاك أمرُ تربية النّحل في الحدائق السُلطانية

حدث في الأيَّام الأخيرة أن فترتْ العلاقات بين مصر وتركيا وشكا لي السُلطانُ ذات يومٍ ما أصاب نفسَهُ من كمدٍ بسبب ذلك ، وكيف أنه لا يعرفُ متى وكيف يتسنَى له أن يحلَّ هذه المشكلة ، ويُقرِّب ما بين أطراف النِّزاع بينهما

ومن الجائز أنه قد ارتسمتْ على وجهي نظرةٌ خاصَّةٌ عندما سمعْتُ كلام السُلطان ، لأنه عقَّب عليَّ -وهو يبتسم بخبثٍ قائلاً

- « أتحاولُ أن تبدو شديد الحرص يا مونشهاوزن ؟ بينما أنت تريدُ في الحقيقة أن تسأل ولأي سببٍ جئتُ إلى هذا المكان ؟ أليس هذا ما تعنيه ؟ أليس كذلك ؟

فما كان مني إلاّ أن هززتُ كتفي موافقَةً ، عند ذلك عاودَ السلطانُ الكلام

- حسناً حسناً يا صديقي العزيز! فأنا عليمٌ بكل ما هنالك ، ولكنَّ هذه حالةٌ خاصةٌ تحتاج إلى وسائل خاصةٍ كذلك . انظر إلى هذه الدَّرجات إن عِدَّتها ثلاثمائة وخمسُ وستون درجة ، وإنها تنتهي إلى طابق لا تُرهَفُ فيه الآذان لسماع ما يدور فيه ، فأسْرِعْ والحق بي فإنني سأفضي إليك بسرَ عميق ، ألا فأسرع!

وما أن أتمَّ كلامَهُ حتى وثبتُ على قدميَّ وارتقيْتُ الدرجات حتى وصلتُ إلى قمَّتها في شيءٍ من الجهد ، وهناك طفِقتُ أنتظر السُلطان الذي لحق بي متهالكاً بعد قليل وهو يهرول بجسمه المتكدّس

ولم يطُلْ بي المقامُ ، ولو أن السلطان قضى نصف ساعة كاملاً وهو يتعسّر في تنفسه ، ولم يكن ليستطيع أن يفتحَ فمَهُ إلا ليقول لي « صبراً! صبراً! » . وما كنتُ قليل الصبر ، ولكنني في خلال ذلك كنتُ أنظر مليّاً إلى هذا الوجه المنفَعل

وأظنُّكم راغبين في أن تعرفوا ما إذا كان السُلطانُ قد أفضى إليَّ في النهاية بهذا السرَ ؟

ويمكنني أن أقول إن هذا حصل بالفعل ، وإنني شديد الأسف إذ يتعذرُ عليَّ أن أكرِّر لكم ما دار بيني وبين السُلطان . لأنكم تعلمون تمام العلم أن هناك من الأسرار الدوليَّة ما إذا أفشِيَ خبيئُها كان سبباً في إشعال نار حرب أوروبية لا محالة

ومع ذلك ، فإنني أؤكد لكم أن هذا السرَّ مما يدعو إلى رفع الرأس عالياً وفضلاً عن ذلك فإن السلطان قد أقسم لي على القرآن وبشرف النبيِّ الكريم على أن يجعل أمر هذه المهمَّة سراً مكتوماً وإنه لن يبوح بكلمةٍ لكائن من كان ولن يذكر شيئاً عن الغاية من هذه المهمة التي أوفدني بها إلى القاهرة ، لذلك وجدتُ نفسي مُلزماً لأن أقسم بشرفي كنبيل ألمانيّ على أن أحتفظ بهذا السرِّ ، وقد وعدتُ السلطان بذلك

وكل ما أقوله لكم هو أن مهمَّتي هذه صادفتْ نجاحاً وارتياحاً عند السلطان ، والدليل على ذلك أنه رأى بعد ذلك بقليل أن يُكلِّفني بمهمَّةٍ مشابهةٍ ، فأرسلني مندوباً من قِبَله إلى شاه إيران وهذا ما سأقصُّ عليكم خبرَه فيما بعد

في الليلة التي أزمعتُ فيها السَّفر إلى القاهرة قضيتُ المساء في جَوْشَن في حدائق القصر الذي يُطلّ على البحر ، وأخذنا بأطراف الحديث ، وتدارسنا ما يجبُ وما يجوز أن أقوم به إذا ما وصلتُ إلى نائب السلطان في مصر ، وانتقل بنا الحديثُ إلى الكلام على مغامراتي السَّابقة في الجيش البروسيّ فقصصتُ على مسامع السلطان إحدى هذه المغامرات إبَّان حصار مدينة حصينة لا أذكرُ عنها الآن شيئاً كثيراً

وأنتم تذكرون يا أصدقائي الأعزَّاء ما قصصتُهُ عليكم في جلساتنا السالفة ، من طرائف هذه المغامرات ، ومع أن ما رويته للسلطان لا أعدّه إلا تافهاً بالمقارنة إلى مغامراتي الأخرى ، ولكن السُلطان وجد هذه الحكاية جديرةً بأن تُقَصَّ على الأسماع ، لهذا رأيت من المناسب أن أعيد ذكرها عليكم

حدث مرةً أن كنا نحاصر مدينةً صغيرةً لا أذكر مكانها ، وكان قائدنا تُعْوزه أخبار ما يجري وراء حيطان هذه المدينة المحصَّنة ، ولم تكن هناك وسيلةٌ من الوسائل التي يمكن بها إرسالُ جاسوسٍ خفيةً إلى الحصن مع ضمان النجاح في مهَمته ؛ وبينما أخذتُ أفكر في الصعاب والمخاطر التي يتعرَّض لها من تسوِّل له نفسُه أن يتسرِّب إلى خطوط الأعداء ومخافرهم وتحصيناتهم المنيعة ، إذا بخاطر يتملَّكني ويجعلني أفكر في وسيلةٍ أخرى لتحقيق هذه الغاية



ودون أن أفضي إلى أحد بما عزمتُ عليه وثبتُ على قدميَّ واندفعتُ إلى أحد المدافع الكبيرة المصوَّبة نحو الحصن ، وأعطيتُ أمراً بإطلاق النار من هذا المدفع في دقيقةٍ معيَّنةٍ ، فوقف المدفعيُّ يحملُ مشعله ينتظرُ الوقت المحدَّد لإشعال البارود ، وما أن انطلقت القنبلةُ حتى وثبتُ في الفضاء وتعلقتُ بها حاملةً إياي في طريقها إلى الهدف

وبينما كنتُ في طريقي معلّقاً في الفضاء مرّت بذهني خواطر متلاحقةٌ فقلتُ لنفسي : قد تصلُ سالماً إلى الحصن ، ولكن كيف لك أن تعود من حيث أتيت فتخرجَ من هذا الحصن دون أن يتنبَّه إليك أحدٌ فرغبتك المُلحّة لتقوم بواجبك العسكري لم تسمحْ لك بخلع هذا الزيّ الذي يفضحك إذا وصلتَ إلى الحصن ، وليس من شك في أنه سيُقبض عليك وتلقى حتفك على أقرب مشنقةٍ! ولكنَّ هذا لن يكون! ، ومتى كان آل مونشهاوزن يختمون حياتهم على هذا النَّحو ؟

عند ذلك طرأت عليَّ فكرةٌ جديدةٌ ، فقررت في التَّو أن أثب على أوّل قنبلةٍ طائرةٍ من الحصن لأعود بها من حيث أتيت كما لو كانت عربةً في انتظاري ، وما هي لحظةٌ حتى لمحتُ قريباً مني إحدى هذه القنابل المسدَّدة من الحصن ، فانتهزت الفرصة ووثبتُ من قنبلتي إلى قنبلة العدوّ وتعلّقت بها . وهكذا عُدتُ ثانية إلى المعسكر دون أن أُنجزَ المهمة إذ ذاك ، ولكنني أتورَّع عن تكرار التجربة بعد ذلك

فما إن سمع السلطان ذلك حتى انفجر من الضحك وقال -وهو يقبض على بطنه من شدَّة ضحكه- «نعم نعم يا منشهاوزن إنَّ ذلك جائزٌ ومعقولٌ جداً ولكنَّ المهمّة كانت -ولا شك- جسيمةً»

فأجبتُه «حقاً أنها كانت مهمَّة جدّ خطيرةٍ يا صاحب الجلالة ، ولكنني أحمد الله الذي نجّاني من مصيبة واقعةٍ ، لأن القنابل -كما هو معروف- ملساء وكان من الصَّعْب أن يحافظ الإنسانُ على توازنه فوقها ، وكان من الأصوب أن يقوم بهذه المهمّة رجلٌ أنضر شباباً»

وفي اليوم الثاني ، وبين مظاهر التّكريم الباهرة كسفير من السُّفراء بارحتُ القسطنطينيّة وفي ركابي حاشيةٌ كبيرةٌ كما يتطلّبُ ذلك مركزي الخطيرُ . وتفضّل السُّلطان فصحبني حتى ساحل البحر ، وبينما هو يمسكني بكلتا يديه مُوَدِّعاً همسَ في أذني قائلاً «أرجوك يا مونشهاوزن أن تقلع عن مغامراتك الجنونية ، فأنت تعلم نوعَ المهمّة المُلقاة على كتفك»

ولم أجب عن كـلام السلطان بأكـثـر من أن أعـقـد ذراعي على صدري ، وأن أنحني صامتاً دون أن أتكلم . وقد فهم السلطانُ ما أعنيه بانحناني وسكوتي ، فتَبِعنا بعينه حتى حملتنا القواربُ إلى الشـاطئ الآسيوي أمام اسطنبول ، ومن ثم بدأنا رحلتنا الطَّويلة إلى القاهرة على ظهور الجمال

كانت حاشيتي كبيرة العدد ومع ذلك فإنني لم أتردَّد في أن أضيف إليـهم عـدداً آخـر التـقـيـتُ بهم في الطَّريق ممن كنتُ في حـاجـةٍ إلى خدماتهم

كم من مرة طوَفتُ فيـها بـأوروبا وقطعت مئات الأميال ولم يحدث مُطلقاً أثناء رحلاتي تلك أن قابلتُ من مُختلف النَّاس مثل ما قابلتُ في خـلال هذه الأيام القليلة وأنا في طريقي إلى القـاهرة وأريـد أن أؤكـد بهذه المناسبـة أنَّ من يرغب في أن يرى عجائبَ الحيـاة فليس له إلاّ أن يسافر إلى قارَةٍ أخرى

لم يطلْ بنا السَّـيـرُ بعيـداً،عن اسطنبـول حـتى رأيت على قـارعـة الطريق رجلاً في متوسِّـط العمر بادية عليه علاماتُ الصِّحة وهو يجري بسُـرعةٍ فاقتْ سـرعة القافلة ، والـعجيبُ في ذلك أنَّ كل قدم من قدميه كانت مقيَّدةً بجلةٍ ثقيلةٍ من الحديد يبلغُ وزنُها بضعة أرطال

فناديته وقلت له « إلى أين أيها الأخُ ؟ » وما بالُك مُسرعاً ، وما بك حـتى قـسَـوْتَ على نفسك بـهـذه الأثقـال التي تُـعـجِـزُ الإنـســان عن الحركة ؟

فأجابني الرّجلُ « إنـنـي نشـأت في أسـرة من العدَّائين المشـهورين بالسـرعة لهذا أشـاع عنّا النَّاس أن أجسـامنا خـالية من الطّحال ، ولكنْ كلُّ مـا أقولُهُ هو أن أحداً منا لم أسمـعه يتـشـكّى بالسـويداء كغيـره من

الناس . أما سرُّ هذا الثّقل المعقود حول ساقيَّ فذلك لكي أحدَّ من قدرتي على سُرْعة العدْو ؛ فمنذ ساعتين اثنتين خرجتُ من بلاد المغرب حيث أعملُ عداءً في خدمة داي الجزائر ، وفي هذا الصباح كلّفني سُمُوّه برحلةٍ طويلةٍ على أن أعود إليه بالخبر في الظّهر ، ولما كنت مُجهداً لم أستطع أن أصل إلى القصر في الظهر كما أمرني فلم يكن من سموّه إلا أن طردني من خدمته ، وها أنت تراني أضربُ الأرض على غير هدى وليس معي من زادٍ إلا كسرةُ خبزٍ في يدي وتفاحتان في جيبي ، وقد علّقتُ هذين الثقلين حول ساقيَّ حتى أتمهّل في سيري ، لأنّني لا أرغبُ في أن أذهبَ أبعد من القسطنطينيّة التي سوف أصل إليها في أقلّ من نصف ساعة ، وهنا سأبحثُ عن عملٍ جديدٍ»



ولم يكن في هذا الرجل ما يُنفِّرني منه لذلك سألته عمّا إذا كان يرغب في أن يدخل في خدمتي . وقد تملّكني السرورُ عندما قبل ، فخصّصْتُ له جملاً لركوبه ، وما أسرعَ أن أصبح واحداً منّا ولكنَّه كان من وقتٍ لآخر ينزل عن جمله ويعدو أمام القافلة مسافة بضعة أميالٍ ويعودُ قافلاً كالبرق . وكانت غايتُه من ذلك أن يحتفظَ بمرانتهِ وقدْرته على العدوِ السريع

كان هذا أيُّها السادة أوّل من انضمَ إلى القافلة ، وقبل أن ينصرمَ هذا اليومُ نفسه صادفتُ في الطريق رجلين ليسا أقلَّ غرابةً من صاحبنا هذا

أمّا أحدُهُما فقد مرَرْنا به راقداً على قارعة الطريق وكان طريقاً مُنحدِراً قد غطَّته الحشائشُ ، فظننّا في بادئ الأمر أنه نائمٌ ، ولكنَّا عندما اقتربْنا منه وجدناهُ مفتوحَ العينين تشيعُ في وجهه البهجةُ كأنَّه يُرَوِّحُ عن نفسه أو يتسلَّى بمفردِهِ

فسألته إلى ماذا أنت مُنْصتٌ يا صديقي ؟

فأجابني إنني أسلِّي نفسي بمُراقبةِ هذه الحشائش لأعرِفَ كيف تنمو ؛ وذلك بأن أسْتَرق السمعَ وأُنصِتَ إليها أثناء نموها

- أصدقاً ما تقول ؟ أوَ مُمكِنٌ ذلك ؟

- إنني لا أهزلُ يا سيدي بل إنني قادرٌ على أن أسترقَ السمعَ إلى أشياء أخرى غير الحشائش وطريقة نموّها

فأجبتُ : إنني في حاجةٍ إليك يا صديقي ، تعال وانضمّ إلينا . فهذا هو ثاني الرجلين

وبعد ساعةٍ صادفنا في طريقنا صياداً يحمل بندقيّةً ، وبعد أن

أمعن النَّظر في الفضاء الفسيح أطلقها دون أن يلمعَ أمامنا الهدف الذي أراد أن يصيبَهُ ، ثم إنه بعد ذلك وقف على أطراف أصابعه وأخذ يُحمْلِقُ وكأنه يحاولُ أن يُدقِّقَ النَّظر في شيءٍ من الأشياءِ

فصحتُ في وجهه   أيها الرجلُ ، إنني لا أرى إلا الفضاءَ الفسيحَ فأيُّ هدفٍ هذا الذي صوَّبتَ إليه بندقيتكَ لأنني لا أراه

فأجابني   إنني أجرِّبُ هذه البندقية الجديدة ، فهنالك على قمَّة الكنيسة في مدينة «اشْتَراسْبُرج» عُصفورٌ وقد تمكنتُ بالفعل من إصابته! يا لها من بندقيَةٍ جميلةٍ!

وإذ كنتُ صيَّاداً بارعاً فقد أثارَ إعجابي وتقديري هذا الرجلُ الذي يصيب الهدفَ إلى هذا المدى ، لهذا لم يكنْ بدٌّ من أن أسمح له بالدُّخول في خدمتنا ، لأن هذه البراعة كثيراً ما أكون في حاجةٍ إليها وهذا هو رفيقُنا الثالث

وكنَّا في كل مساءٍ إذا حلّ الليلُ نزلنا في بعض الخانات للمبيت ، وكان صديقُنا الصيّادُ هذا يقضي ساعةً أو ساعتين وهو يقصّ علينا من طرائف مغامراته في الصَّيد والقنص

وحدث مرَّةً بعد ذلك -وقد وصلنا إلى جبل لبنان- أن شاهدْنا رجلاً بديناً مفتولَ العضلِ يحملُ حبلاً طويلاً يريدُ به أن يطوِّق حرشاً من أحراش شجر الأرزِ ، فدفعني حُبَّ الاستطلاع إلى أن أقف وأسأله حقيقة أمره

- ماذا تبغي يا صديقي بعملك هذا ؟

فأجابني   إنني جئتُ لجمعِ شيءٍ من الحطب ولكنني مع الأسف نسيت فأسي في البيت فلم يكن بدٌّ من أن أتحايلَ على ذلك بوسيلةٍ أخرى وقد نجحتُ بالفعل ، فها أنتم ترون أنني قد طوّقتُ أشجارَ هذه

الغابة بالحبل ولكنْ أرجو معذرةً فإن الأشجارَ قد أوشكتْ على السقوط فعليكم أن تبتعدوا قليلاً.

وما أن انتهى من كلامِهِ حتى سحب الحبل سحبةً عنيفةً وما هي إلا لحظةٌ حتى انهارت الأشجار وكانتْ تغطّي ميلاً مربعاً من الأرض ، لقد رأيتُها تتساقطُ أمام عيني وكأنَّها البوصةُ الناشفةُ!

وليس لي أن أذكرَ لكم ما حدث بعد ذلك ، فكلُّ ما هنالك أنني لم أرِدْ أن أضيِّع هذه الفرصة وأترك هذا الرجلَ العجيب يسيرُ في حال سبيله ، بل ضمَمْتُه إلى جماعتي بعد أن منحتُه أجراً باهظاً ، هذا هو رفيقُنا الرابعُ



قضينا بعد ذلك أسبوعاً في الطَّريق حتى عبرنا الحدودَ المصريَّة وهناك صادفتنا ريحٌ عاتيةٌ كادتْ من شدَّتها أن تحملِنا في الهواء

وبينما نحن كذلك إذْ رأينا على جانب الطريقِ سبع طواحين هوائيَّة كانت أجنحتها تدور بسرعةٍ عجيبةٍ كأنها طارةُ مغزل سريع ، وإلى جانب هذه الطواحين وقع نظرنُا على رجلٍ عظيم الجثّة وقد سدَّ فتحة أنفه اليمنى بسبَّابته

وما كاد الرَّجل يرانا ويرى صراعنا مع العاصفة حتى دار دورةً ووقف قُبالتنا ثم انحنى قليلاً ورفع عمامته . وما كاد يفعلُ ذلك حتى هدأت العاصفةُ ووقف دورانُ أجنحة الطَّواحين!

فصحتُ من العجب : ما حكايتُك أيُّها الرّجلُ ؟ أيسكنُ فيك شيطانٌ أم أنت الشيطانُ نفسه!

- معذرةً يا صاحب السعادة ، إنني كما ترى أعمل طحّاناً ، فإذا كانت الريحُ ساكنةً لا تكفي لتسيير هذه الطواحين فما علي إلا أن أسُدَّ إحدى فتحتَيْ أنفي!

فسألته كم يمنحُهُ سيِّدُه من أجرٍ على هذا العمل العظيم ؟ فلمَّا ذكر لي مقدارَه -وكان طفيفاً- عرضتُ عليه أن أمنحهُ عشرة أضعافه ، وبذلك تيسّر لي أن أضمَّه إلى بطانتي ، وهذا هو رفيقنا الخامسُ

وهكذا سِرْنا في طريقنا إلى القاهرة حيثُ قضينا أربعة أسابيع أنجزتُ في خلالها المهمّة التي جئتُ من أجلها ونجحتُ نجاحاً عظيماً أكثر مما كان يتوقّعه السلطان . وقد كان لذلك أثرُهُ في علاقات السلطان بما ندعوه الدُّول العظمى ، ولكن يؤسفني أن أمتنعَ من ذكر شيء من هذا لأنه سرٌّ من الأسرار ، ولما انتهتْ مهمَّتي أرسلتُ بطانتي جميعها إلى استنبول بخطابٍ مني إلى السلطان ولم أستثنِ سوى خادمي الخامس إذ رغبتُ في أن يصحبني في رحلةٍ على النيل أقوم بها لا كسفيرٍ سياسيٍّ بل كرجلٍ عاديّ

الليلة العاشرة

عقدْتُ العزمَ وأنا في القاهرة على أن أقوم برحلة على النيل ؛ وقد ذكرت لكم خبرها في الليلة السابقة ، وكل ما يمكنني أن أضيفه إلى ذلك هو أنَّ أحد معارفي حذّرني من القيام بهذه الرحلة ، إذ إنَّ فيضان النيل شديدُ الخطورة ، ومع ذلك لم أعبأ بهذا التحذير بل استأجرتُ مركباً شراعياً وجماعةً من الملاّحين والخدم ، ووسقْتُ المركب بما نحتاج إليه من طعامٍ يكفينا مُدّةً طويلةً

بدأتُ رحلتي النّيليّة وكان كلُّ شيءٍ يُبشّرُ بنُزهةٍ جميلةٍ ، ولكنَّ ذلك لم يستمرّ طويلاً . فلمّا انقضى اليوم الرابعُ أو الخامسُ لاحظْتُ أن ماء النيل أصبح أحمر اللون وأخذ يطغى على شاطئيهِ فلمّا أصبح الصّباحُ بدأ الماءُ يفيض ويندفعُ بسرعةٍ شديدةٍ ، وما أن أمسى المساءُ حتى امتدّتْ مياهُ الفيضان شرقاً وغرباً وطغَتْ على الحقول والودْيان فغمرتْ مئات الأميال من الأرض ، وبعد ساعةٍ من ذلك شعرنا بأن المركب قد تعثّر بشيءٍ من الأشياء ، ولما كان الظلامُ ضارباً أطنابه لم نتحقّق ماهيّة هذا الشيء الذي لا يعدو أن يكون عريشةً من الحشائش ولم نُردِ أن نتبيّن حقيقة الأمر حتى يصبحَ الصّباحُ

ولما كان اليومُ التَّالي وجدْنا أن ما تعثّر به المركب ليس إلا كومة من اللوز انغرسَ فيها مقدَّمُ المركب فعاقه عن كلِّ حركةٍ وكان ذلك من حُسْن الحظّ ، وبعد قليلٍ هبَّتْ ريحٌ عاصفةٌ فدفعت المركبَ إلى جنبه فمالَ وغرفَ الماءَ الذي غمر ما كنا نحملُ من طعام . ولكنَّ الحظَّ كان مُواتينا لأنّنا على الأقل استعضْنا بما وجدناه من اللّوز عما فقدناهُ من الطعام فعشْنا جميعاً (إذ كنّا ثمانية رجالٍ وصبيين) على هذا اللوز ، واحتمينا من شرِّ الفيضان بفروعِ الأشجار ، فقضينا على هذا النَّحْو خمسةَ أسابيع ونصفاً حتى بدَأتْ مياهُ الفيضان في الانخفاض

وقد امتلأنا فرحاً عندما بَدَتْ الأرضُ من تحتنا وقد غطتْها الأوحالُ ، فنزَلْنا من الأشجار وصرْنا نتخبَّط حتى وصلنا إلى المركب الذي اكتسحتْهُ الأمواج إلى مسافةِ مائتي قصبةٍ على الأقل من المكان الذي انقلبَ فيه ، ووجدْنا أن جانباً من الزَّادِ المخزون فيه مازال صالحاً للأكل ، فكان طعمُهُ شهيّاً بعد تلك الأسابيع التي قضيناها ونحنُ لا نطعمُ إلا اللّوزَ

وكان علينا أن نسيرَ على الأقدام مسافةً لا تقلّ عن مائة وسبعةٍ وثلاثين ميلاً حتى نصلَ إلى مجرى النَّهر الذي انحسَرَتْ عنه المياهُ وأشقُّ من هذا أنه كان علينا أن نتخطّى أسوار الحدائق والبساتين التي كانت تعترضُنا والتي كانت من قبل مغمورةً بالماءِ . وعندما وصلنا إلى النهرِ تفضَّل علينا أحدُ البكوات وأعارَنا مركباً آخرَ حملنا إلى الإسكندرية فوصلْنا هذه المدينةَ بعد سبعة أيامٍ ، ومن هناك أبْحرنا إلى « اسطنبول »

وكانت المتاعبُ التي صادفها أولئك الرِّجال الذين صحبوني في هذه الرحلة لا تُحتمل ، فضلاً عن أنهم فقدوا مركَبَهُم مما جعل أية مكافأةٍ نقديةٍ تُقدَّم إليهم لا تُساوي هذا المجهود ، ولكنهم مع ذلك كانوا جدَّ مغتبطين لأنهم قضَوْا سبعةَ أسابيعِ في صحبة « مونشهاوْزِن » المشهور معتصمين بفروع الأشجار ، ولا يأكلون خلال ذلك إلا اللَّوز . فمن هذا

ترون يا أصدقائي الأعزّاء أنّ الرّجل الذي يحملُ اسماً مشهوراً يجدُ من يُقَدِّرُ عظمتَه في أيِّ مكان ينزِلُه

وإنني لا أريد أن أؤكِّدَ لكم -بعد أن نجحْتُ في مهمَّتي الدبلوماسية ووصلتُ إلى نتائجَ رائعةٍ- أن السلطان جعلني موضع تقديره أكثر من ذي قبلُ . فإذا حدث وقابل أحدُكم في معرض «لَيبْزِخْ» رجلاً تركياً ، وسألَهُ عن البارون مونشهاوزن ، وكان هذا الرجلُ تركيّاً حقيقةً فإنه سوف يقُصُّ على سائله الشيء الكثير عن صداقتي للسلطان ، وكيف أنه بَعَثَني إلى «اسطنبول» في مهمَّةٍ جعلت اسمي معروفاً بين أنحاء تركيا

وبعد قليلٍ أصبح جلالةُ السلطان لا يستغني عنِّي ، فكان يدعوني إلى مائدته في الظُّهر وفي المساءِ ،و يحسُنُ بي أن أقرِّر بهذه المناسبة أن مائدةَ السلطان التركي تفوقُ موائد الأمراءِ جميعاً بما تحويه من أشهى ألوان الطعام ولا ينقُصُها إلاّ شيءٌ واحدٌ ، إذْ أن أتباعَ محمَّدٍ -كما تعلمون- حُرِّمَ عليهم شربُ النبيذ

وحدث مرّةً أن أسَرَّ إليّ السلطانُ قائلاً

«لديَّ يا مونشهاوزن مفاجأةٌ طريفةٌ لك ، فأنتم معشر المسيحيين تُقبلون على شرب النبيذ وتعرفون صُنوفَهُ وألوانه . لهذا فإني سأهديكَ زجاجةً من نبيذِ توكاي المشهورِ الذي قد أهدانيه أحدُ أمراءِ المجرِ ولا أريدُ منك بعد أن تتذوّقَهُ إلا أن تُخبرني عن نوعه ، إذ إننا معشر المسلمين لا يمسُ شفاهَنا شرابُ مخمورٌ»

فلما تذوّقتُ النبيذَ هززتُ رأسي موافَقةً ، بيد أن السلطانَ أصرّ على أن أصارِحَه بالحقيقة ، عند ذلك أجبت بقولي

«يا صاحب الجلالة لا أريدُ أن أقولَ إلا ما أعتقد ، وأنا خبيرٌ بالنبيذ ، فكم احتسيتُ من دنان النبيذ المُعَتَّقِ في بلاط المرحوم

الامبراطورِ شارل السادس ، فإذا قارنتُ ذلك بهذا النبيذ ، فليس لي إلا أن أقرر يا صاحب الجلالة بأنه نبيذٌ عاديٌّ غير معتَّق ولو أنه من كروم توكاي نفسها »



« ولو سمحتَ لي يا صاحبَ الجلالة بالمراهنة وذلك بطلبِ زجاجة من نبيذ توكاي المخزونة في القصر الامبراطوري في ڤيينّا ليتضح الفرقُ بين هذه وتلك ، فسوفَ لا تنقضي ساعة واحدةٌ إلا وتكون هذه الزجاجةُ بين يدي جلالتكم ، ولا أقصدُ من ذلك إلاّ إثبات رأيي

فقال السلطان

« إنك تهزل ولا شكّ يا مونشهاوزن! »

فأجبت « إنني لا أهزل يا مولايَ ، وإنّني لأقدم رأسي ثمناً لهذا الرّهان . فلا تنقضي ساعةٌ حتى أرفع إلى جلالتكم زُجاجةً من نبيذ توكاي أستقدمها في التوّ من القصر الامبراطوري في ڤيينّا »

وافق السلطان على الرِّهان ، فإذا لم يحضر النَّبيذُ في الساعة الرّابعة تماماً فإنني أفقدُ الرِّهان ومنْ ثمَّ أفقدُ رأسي ، وإن كان رأسَ صديقٍ للسلطان! أما إذا كسبتُ الرّهان فإن خزائن السلطان تُفتَحُ لي لأتخيَّرَ منها ما أشاءُ من ذهبٍ ولآلئَ وأحجارٍ كريمةٍ ، أحملُ منها ما يستطيع أقوى الرِّجالِ حملَه على كتفه

عند ذلك طلبْتُ قلماً وورقاً وحِبراً وكتبتُ رسالةً إلى الامبراطورة « ماريا تَريزا » أقول فيها

« . لقد أصبحتِ يا صاحبةَ الجلالةِ الوارثةَ الشرعيةَ لأبيك العظيم ، كما أصبحْتِ وارثةَ نبيذِ أبيكِ المعتَّق . فهل لي أن أرجوَ من جلالتكِ أن تسمحي لحامل هذه الرسالةِ بزُجاجةٍ من نبيذِ « توكاي » الذي كثيراً ما احتَسَيْتُ منه في قصر أبيك العظيم ، وكلُّ ما أرجوه أن يكون من الصِّنف المعتق ، وإنني يا صاحبةَ الجلالةِ ما زلتُ الخادمَ المخلصَ الخ . »

وعندما انتهيتُ من كتابة الرّسالةِ كانت الساعة الثالثةَ وخمسَ دقائق فسلَّمتُها إلى خادِمي « العدّاء » الذي سبق أن حدَّثتكم عنه ، ففكَكْتُ الثقلَ المربوطَ حولَ قدمِه حتى يغدو بأقصى سُرعة ، فانطلق إلى « ڤيينا » سيراً على الأقدام .

طفقتُ في حضرة السلطان أنتظرُ عودةَ الرسولِ ، وبعد قليلٍ دقَّت الساعةُ الثالثةَ والربعَ ، ثم الثالثةَ والنّصفَ ، ثمَّ دقَّت الرابعةَ إلا الربعَ ، ولم يظهر بعدُ أثرٌ للرسول ، عند ذلك بدأ يخامرني الشَّكّ وأخذت رعدةٌ تتملّكني لا سيما عندما اقترب السلطانُ من الجرسِ ليُرسلَ في طلبِ الجلادِ! عند ذلك سألتُه أن أخرُجَ إلى الحديقة لكي أتنسَّمَ هواءَها العليلَ فخرجتُ وفي أثري أحدُ الحرّاسِ حتى لا أغيبَ عن عينه . فلمَّا تملَّكني الضيقُ أرسلتُ في طلب خادمي « مسترقِ السمع » ثم « الصيّاد » فأقبلا عليَّ وكانت الساعةُ إذ ذاك قد أشرفت على الرابعةِ

فانبطح الأولُ على الأرض وألصق أذُنَهُ ثم أجاب بأنه لا يسمعُ صوتاً

لأقدام «العدَّاء» ولكنه يعتقد أنه نائمٌ على الأرض على مسافةٍ بعيدةٍ من اسطنبول لأنه قد ميَّز شخيرَه تمييزاً واضحاً . ثمّ وثبَ خادم الصيّاد على مُرتفعٍ من الأرض وأخذ يُحملِق في الهواءِ ثم أجاب

« إنَّني أرى هذا الخنزير راقداً تحت شجرةٍ إلى جوار مدينةِ « بِلْغراد » والزُّجاجة إلى جانبه ؛ أتريدُ يا سيِّدي أن أوقظَه ؟

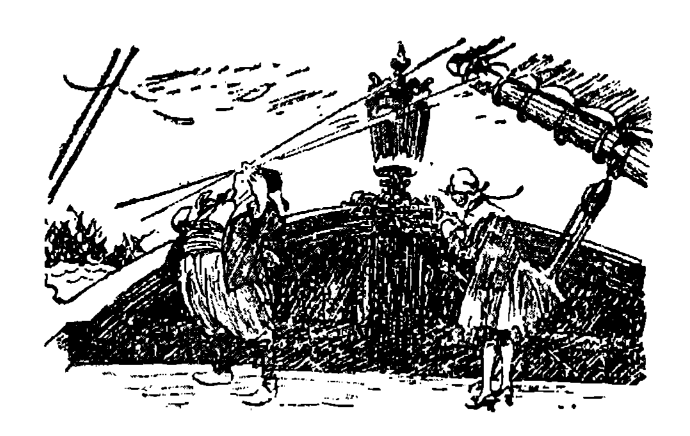
وما أن انتهى من سؤاله ودون أن ينتظرَ جوابي حتى رفع بندُقيَّتَهُ وصوبها إلى قمَّة الشجرةِ ثم أطلقها ، فكسرتْ عِدَّة من الأغصان المورقةِ التي سقطتْ على ذلك النَّائم ، وما كان منهُ إلا أن وثبَ على قدميهِ وقبضَ على الزجاجةِ وعلى رسالة من الامبراطورة « ماريا تريزا » ، وما كانت الساعةُ الرابعةُ إلا نصف دقيقةٍ حتى كان على أبواب القاعة السلطانية . فلما رأى السلطانُ ذلك تولاّه العجبُ وأقبل علي يضمّني إلى صدره ويقول إنه ما كان يقصد بي شراً ثم إنه طلب خازن الأموال السلطانية وقال له

« إن الخدمات التي أدَّاها مونشهاوزن إلى الدولة التركية لا تُقدَّر ولا يعرفها أحدُ سواي ، ولهذا فإنني أمرتُ بأن يُمنح صديقي مونشهاوزن ، مكافأة على أعماله العديدة من الذهب ومن اللآلئ ومن الأحجار الكريمة مما هو موجودٌ في خزانتي بمقدار ما يمكن أشدَّ الرجال قوَّةً أن يحمله على كتفيه »

فلما سمع خازنُ الأموال أمر السلطان انحنى وترك الغرفة . وبينما كان خدمي يجهّزون سفينةً سريعةً لعودتي إلى بلادي أرسلتُ إلى خادمي « حامل الأثقال » وتَبِعْنا خازنَ الأموال إلى الخزائن فلما فُتحت أبوابُها أخذ خادمي يجمعُ ما فيها من كنوزٍ في كومةٍ واحدةٍ ثم حزمها بحبلٍ غليظٍ ورفعها إلى عاتقه . وقد حدث هذا في سرعةِ البرقِ ، وما أن انتهى حتى كنَّا في طريقنا نُهرولُ إلى الميناء أمَّا حارسُ الخزائن ، فلما رأى ذلك أسرع إلى السُلطان وهو يصيح ويولول قائلاً إن جميع ما في خزائن القصر قد حملها على كتفيه

وعندما سمع السُلطان ذلك وأن الفكاهة قد جاوزتْ حدّها تملّكهُ الغضبُ ، إذ ما كان يظن أن وعدَهُ يُوقعه في هذه النتيجة غير المنتظرة ، لهذا أمر أمير البحر بأن يُجهّز الأسطول بأسره ليطارد سفينتَنا . وفي خلال تلك الليلة كنا قد مرقنا من الدردنيل وقطعنا مرحلةً كبيرةً في بحر « إيجه » ؛ وعندما أصبح الصباحُ كنا قد وصلنا ما بين جزيرة كريت والطرف الجنوبي لشبه جزيرة المورة ، ومن ثَمَّ دخلنا البحر الأبيض نفسه عند ذلك رأيت عدداً لا يُحصى من السُفن التركية التي تبعتنا فهيّج هذا المنظرُ في نفسي الأشجان

في هذه اللحظة تقدَّم إليَّ خادمي « مسيِّر الرياح » وهمس في أذني



«لا تبتئسْ يا صاحب السعادة فما هي إلا لحظةٌ حتى تعود هذه القافلةُ على أعقابها كما جاءتْ ، وما أن انتهى من كلامه حتى أسرع إلى مُؤخَّر السفينة ووقف إلي جانب الدفَّة بحيث كانت فتحةُ أنفه اليُمنى مُقابلةً للمراكب التركية وفتحة أنفه اليُسرى قُبالة السفينة التي نركبها عند ذلك هبَّتْ ريحٌ عاصفةٌ اكتسحتْ السفنَ التي كانت تلاحقُنا وعبثتْ بصواريها وحبالها وأشرعتها ودفعتها دفعاً حتى تفرّق بعضها عن بعض ، بينما كانت سفينتُنا -بما تحمل من كنوزٍ لا حصْرَ لها- في طريقها إلى إيطاليا ، ولم تمض إلا بضعُ ساعاتٍ حتى ألقينا مراسينا على شاطئها

نعم ما أصدق المثل الذي يقول إن المال الذي تأتي به الرياحُ تُبعثرهُ الزوابعُ! وهذا ما حدث بالفعل ، وسأقصُ عليكم خبره في المرة القادمة

الليلة الحادية عشرة

في مساء اليوم الذي عزم فيه البارونُ فون مونشهاوْزن على السّفر إلى سويسرا ؛ فتح صديقُه حارسُ الأحراش فمهُ لأوّل مرة ، وكان هذا الرجلُ ممّن لم ينقطع ليلةً واحدةً عن مجلس البارون . ولم تفتْه شاردةٌ من مُغامرات مونشهاوزن السّابقة . نظر حارسُ الأحراش إلى صديقه البارون وسأله عمّا إذا كانت هذه هي المرّة الأولى التي يزورُ فيها سويسرا

عند ذلك أجاب مونشهاوْزن

« إنني أعرف سويسرا معرفةً وثيقةً ، بل أعرفُ كلَّ مرتفعٍ وكلَّ وادٍ فيها ، وبما أني سوف لا أجتمعُ بكم إلا بعد وقتٍ طويلٍ ، لهذا رأيت أن أروي لكم حادثةً واحدةً جرت لي إبّان زيارتي الأولى لهذه البلاد الجميلة ، وإن كانت تافهةً إلا أنها طريفةٌ بعض الشيء »

حدث عندما وصلتُ هناك مع جماعةٍ من السّائحين الأجانب أن عقدنا العزْمَ على أن نتسلّق قمّة جبل « يُونْجْ فَرَاو » الأشمِّ الذي لم يكن

قد ارتقاهُ حتى ذلك الحين أحدٌ من هواةِ الرياضة الجبليَّة . وكانت عدَّتُنا أحد عشر رجلاً ، وكان دليلنا يُدعى «بَسْتيان إريمان» أما بطل هذه الحكاية فابنُه الذي كان يبلغُ من العمر ستّ سنواتٍ ، لهذا سأقصرُ حديثي هذه الليلة عليه

من عادة صيَّادي «الشَمواه» في سويسرا أنَهم يصحبون صغارَهم معهم إلى الجبال إذا ما استووا على سيقانهم . فبذلك يتعوّدون مخاطرَ الجبال وفنونَ التسلُّق منذ نعومة أظفارهم . ومن المشاهد المألوفةِ في سويسرا أنْ ترى طفلاً في الثانية أو الثالثة من عُمره يلبسُ حذاء الثلوج مُمسكاً بعصا جبليّةٍ وهو على رأس جماعةٍ من هواة التسلّق من زائري سويسرا

كان «باستيل» الصغيرُ منذ ولادته طفلاً مرهفاً ضعيفاً ، لهذا كان لأوّل مرةٍ يشتركُ في رحلةٍ من هذه الرّحلات الجبليَّة ، فكان لهذا تعوزُه الخبرةُ ، فجرَ ذلك عليه ضرراً بليغاً لم تمضِ نصفُ ساعةٍ من قيامنا حتّى رأيناهُ يتخلَفُ عن مُتابعة السَّير ، لهذا اتفقنا فيما بيننا على أن يقوم كلُّ واحدٍ منَّا بحملِ هذا الصبيّ مرحلةً وما أسرع أن اختلف رفاقي فيما بينهم عمَّنْ يكونُ البادئ بحمل هذا الصغير ، ولكي أفُضَّ النزاعَ بينهم اقترحتُ عليهم أن أقومَ بهذه المهمَّة وحدي فحملتُ الصَّغير على كتفيَّ وجعلتُهُ يُثَبِّتُ قدميه في جيبَيْ معطفي ، ثم عاودنا التسلُّقَ

سارت الأمورُ على أحسن حالٍ وقد أبدى الصبيّ ارتياحاً واغتباطاً لهذا الأسلوب الطَّريف للرّكوب ، وأخذْتُ في بادئِ الأمر أحِسُّ بالدفءِ والحرارة ولكن ما لبثتُ طويلاً حتى شعرتُ بالعَرَق يتصبَّبُ من رأسي ويفيضُ على جميع جسمي ، وكلما ارتقينا مرحلةً اشتدَّ البردُ وأحسَّ «باستيل» الصَّغيرُ بالقُشعريرة التي كانت تتسرَبُ من جسمِهِ إلى كتفيَّ وصدري . ولا أريدُ أن أحدثكم عما رأيت وشاهدت لأن لذلك موضِعَهُ ، ولكن يكفي أن أقولَ إنَّ رحلتنا استمرتْ على هذا النَّحو يومين وليلتين حتى وصلنا إلى خط الثَّلج الدائم ، فكنا ننْحتُ الدرجاتِ في طريقنا نحتاً

حتى وصلْنا في النّهاية إلى قمّة الجبل ، وهناك أشرَفْنا على منظرٍ ساحرٍ لا يصفهُ اللسانُ

أما رفيقي الصغيرُ فكاد يتجمّدُ ، وقد لفّ ساقيه حول عُنُقي حتى إننا لم نستطعْ أن ننزعهما من مكانهما إلاّ بصعوبةٍ شديدةٍ وباستخدام آلةٍ حادّةٍ . فلما نزل إلى الأرض لم يدرِ كيف يستعملُ أقدامهُ فكانت سيقانُه كالمشلولة ولا عجبَ ، ثم أخذ يترنّحُ يمنةً ويسرةً ، وما كان إلا لحظةً حتى رأيناه ينزلقُ ثم يهوي فجأةً وبسرعة الريح إلى قاع الوادي وفي تلك اللحظة انبعثتْ صرخةُ فزعٍ من ثلاثِ عشرة حنجرةً!

وكان إذا ما تدحرج مسافةً رأينا طبقةً من الثلج تغطّي جسمَهُ وما هي إلا لحظاتٌ حتى استحال إلى كرةٍ هائلةٍ من الثلج راحتْ تهوي إلى بطن الوادي السّحيق ، وبعد قليلٍ لم نستطعْ أن نتبيّنها إلا باستخدام المنظار المقرِّب ، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى اختفت تماماً عن أنظارنا

لقد عقدتْ هذه الفاجعةُ كلّ لسانٍ فوقفنا كالمأخوذين من الدّهشة ، وفي لحظةٍ واحدةٍ انطلق لساني كما انطلق لسان الأب «بَسْتيان» وصحنا معاً «فلْنتْبَعْهُ» ولم يُجْدِ اعتراض رفاقِنا فتيلاً إذ لم ندع الخوفَ من نزول هذه الهوّة (التي يبلغ عمقُها ثلاثة عشر ألف قدمٍ) يمنعنا من أداء الواجب ، فربطنا أنفُسَنا بحبلٍ واحدٍ وبدأنا السيرَ إلى الأمام (وأقصدُ إلى أسفل) ولا أريدُ أن أصِفَ ما لاقيناهُ من مشقّةٍ أثناء النزولِ ، ويكفي أن أقول إنها كانت مجازفةً خطيرةً ، بَيْدَ أنها انتهتْ بسلامٍ والحمد لله عندما وصلنا بعد ساعةٍ إلى بطن الوادي لم نفقِد عضواً

هناك شاهدنا تلك الكرة الثّلجيّة مُعلّقةً على أغصان شجرةٍ ناشفةٍ ، ومن حسن الحظ أن (بَسْتيان) كان مازال يحمل فأسه التي كان ينحتُ بها الثلج أثناء صعودِنا ، وبعد جهدٍ ومشقةٍ تمكّنّا من قطع جذع الشجرة وبذلك هَوَتْ الكرةُ الثلجيّةُ إلى الأرض . بعد هذا بدأنا مهمّةً شاقةً فقضينا بضع ساعاتٍ ونحن نرفعُ طبقات الثّلج طبقةً طبقةً كما

تُنظِّفُ قشور البصل ، حتى سمعنا صوتاً ضعيفاً ينبعثُ من الصبيِّ الذي أخرجناه من محبسه وهو مازال على قيد الحياة . ومن العجيب أنه لم يُصَبْ بإصابةٍ ما ، ولكنه لم يكد يخرُجُ إلى الهواء من مَخْبئِه حتى كاد يتجمَّدُ من البرد ، فحملناهُ إلى بيته حيثُ قضى أربعة عشر يوماً وهو قعيدُ الفراش ، وكان يُقطِّر في فمه كلَّ ساعتين شيءٌ من لبن الماعز الدافئ حتى عادت إليه الحياةُ

وإنَّ الفرح ليغمُرُ صدري عندما أذكرُ أنَّ هذا الصبيَّ قدأصبح اليوم رجلاً بالغاً ، وأنني سوف أضمُّه إلى صدري عندما ألقاهُ قريباً

والآن أستودعكم الله يا أصدقائي الأعزَّاء حتى أعودَ إليكم من سويسرا الجميلة ، وإني أدعو الله أن يُفيض عليكم من السَّعادة ، حتى أرجع إليكم في القريب العاجل

الليلة الثانية عشرة

رويتُ لكم في الليلة الأخيرة ، كيف هربْتُ إلى إيطاليا ، بعد أن حملتُ معي جميع الأموال والجواهر التي وجدتُها في خزائن السلطان

فلما وصلتُ إلى «برِنْديزي» كنتُ ولا شكَ أعدَ نفسي أغنى رجل في أوربا ، ولكن سُرعان ما أحاطت بي أسرابُ الشحاذين والمُتسولين ، وأحاط بي النصّابون والدجّالون والنشّالون ، ولم تنقضِ أسابيعُ معدوداتٍ حتى كان الجانبُ الأوفرَ من هذا الكنز قد تبدّد ، وانتهى الأمرُ بأن سطتْ علينا عصابةٌ من قطاع الطريق فأتتْ على البقيَّة الباقية منهُ ، فلم تترك لنا -كما يقول المثلُ- إلا القميصَ الذي يستُر أجسامنا

ومن حسن الحظِّ أنني كنتُ أحملُ في جيبٍ داخليٍّ يلتصق بالصَّدر حفنةً من الجواهر واللآلئ التي تمكنتُ من أن أستـرَها عن أعين أولئك اللصوص ، فبعتُها إلى تاجر من تجار الجواهر من أهل روما بمبلغ مائة ألف جنيهٍ ذهبيٍّ ، ولم يكن هذا المبلغ بالثَّروة الهيِّنة ومع ذلك فقد وزعتُ أكثره بين خدمي الخمسة ، وهم كما تعرفون : الصَّيَّاد ، ومُسترقُ السمعِ ، ومسيِّر الرياح ، والعدَّاء ، وحاملُ الأثقال ، الذين رأيتُ أن أستغنيَ عن خدماتهم إذ ذاكَ

لم أستبقِ معي إلا بعض المال الذي يكفيني للسَفر لزيارة صديقي القديم الجنرال « إليوت » في جبل طارق

وكان من بين ما لم تمتدّ إليه يدُ قُطاع الطريق مقلاعٌ شبيهٌ بذلك المقلاع الذي استخدَمَهُ في يومٍ من الأيام المَلكُ داود في حربه مع المارد « جُولياتْ » . وهو المِقلاع نفسُه الذي كان يحملُه والدي في يومٍ من الأيام أثناء زيارته لانجلترا وكانت فائدتُه عظيمةً كما سأبيِّن لكم

كان والدي يسيرُ على الشاطئ عند ميناء «دُوفَرْ» ، وبينما كان غارقاً في تأمّلاته يُفكِّرُ في رحلته الفجائيَّة إلى فرنسا ويستعرضُ السُفن الشراعيَّة التي أمامه ليتخيَّر منها واحدةً ، إذا بفرسٍ مائيةٍ تبرز فجأة من البحر وتنطلقُ نحوه وقد أعماها الغضبُ!



بحثَ أبي في جُيُوبه عن سلاحٍ يُدافعُ به عن نفسه فلم يجدْ إلا ذلك المقلاعَ . فما كان منه إلا أن التقطَ حصاتين ورمى بهما الفرسَ المائية فأصابتْ كلُّ حصاةٍ عيناً من عينيْها ، وعلى ذلك أصيبت الفرس بالعمى وأصبحتْ مستأنسَةً سلِسةَ القياد ، فجرَّها أبي وراءهُ إلى دكَّان صانع السَروج حيث اشترى لها سَرْجاً ثمَّ عاد إلى البحر وخاض بها الماء فحملتْهُ على ظهرها إلى ميناء كاليه على الشاطئ الآخر من القنال الانجليزي ، ولم تستغرق رحلتُهُ أكثر من ساعةٍ وعشْر دقائق

كانت هذه الفرسُ البحريةُ حيواناً رائع التكوين ذات عُنُق ممدَّدٍ وعُرف طويلٍ جميلٍ ، ولم تقطعِ البحر سباحةً بل كانت تعدو على قدميْها بسرعةٍ لا مثيل لها فوق قاع البحر نفسِهِ ، وكانت تسبح وحوْلها الملايينُ من الأسماك البديعة الرائعةِ

ولَّما وصل أبي إلى « كاليه » باع هذه الأعجوبةَ إلى صاحب فندق « الأزهار الثلاث » بمبلغ زهيدٍ قدرُهُ تسعُمائة دوكة ، أما صاحبُ الفندق فعرضَ الفرسَ للفُرجةِ فجمعَ من ذلك مالاً كثيراً أرْبى على ربحه من فُندقه . ولَّما هبط أبي باريس بحث عن مُصورٍ ماهرٍ من مُصوِّري القصر الملكي وطلب منه أن يرسم له صورة كُبرى وهو مُمْتطٍ صهوةَ هذا الفرس وأكبر ظَنِّي أنكم شاهدتم هذه الصورة الرائعة ، التي أحتفظ بها إلى اليوم في غرفة نوْمي

أعودُ إلى حكايتي الأولى ، فقد حدث في جبل طارق أن خرجتُ مع صديقي « إليوت » إلى ساحل البحر لنرى بأعيننا طبيعةَ الاستحكامات ووسائل الدِّفاع التي أقامها الأعداء وكنتُ أحملُ معي منظاراً مقرّباً كنتُ اشتريتُه من قبطان إحدى السفن في روما بمبلغ زهيد من المال وكان منظاراً دقيقاً له الفضلُ فيما حدث لي إبَّان هذه الرِّحلة

رأيتُ في تلك اللحظة أن المحاصرين لنا من الإسبان صوّبوا إلى مكاننا مدفعاً قُنبلتهُ زنةُ ستّةٍ وثلاثين رطلاً ، فما كان منِّي إلا أن وثبْتُ إلى أقرب مدفع من زنة ثمانيةٍ وأربعين رطلاً وصوّبتُه في التوِّ إلى مكان مدفع الأعداءِ ، فما أن أمر القائدُ الإسباني بإطلاق النار حتى كنتُ أصدرُ الأمر نفسَه إلى رجالنا ، فانطلقت القذيفتان في وقتٍ واحد والتقتا في مُنتصف المسافة بيننا تقريباً في الفضاء ، فصدمت قنبلتُنا ذات الثمانية والأربعين رطلاً قُنبلةَ العدوِّ ذات الستّة والثلاثين رطلاً فدفعتْها أمامها دفعاً حتى سقطت على رأس المدفعيِّ الذي أطلقها ، ثم اندفعتْ خلال أشرعة السُّفن الواقفة في الميناء ، ومن ثمَّ انطلقتْ فوق البحر

صوبَ شاطئ إفريقية   أما قنبُلتنا فبعد أن دفعتْ قنبلة العدوِّ أمامها اندفعتْ صوب مدفع الأعداء فحملته أمامها وألقتْ به في حوْضٍ من أحواض الملاحة ، ثم اخترقتْ جانب السفينة ، وحدث من ذلك أن اندفع الماءُ إلى داخلها فانقلبتْ بما تحملُهُ فوق ظهرها ، وما أسرع أن غاصتْ في الماء ، فكانت جملةُ من غرق في هذا الحادث ألف ملاح إسبانيّ وبضع مئاتٍ من الجنود ، فلمَّا رأى الجنرال إليوت ما صنعتُ عرض عليّ وظيفةً عسكريةً إلا أنني رفضتُ عرْضَهُ شاكراً ، وعندما صدرتِ الجريدةُ العسكريةُ وجدْتُ كلمةَ شكْرٍ رقيقةً موجّهةً إلى شخصي

لا أظن أحداً يعرفُ اسم الرجل الذي يعودُ إليه الفضل في إنقاذ جبل طارقٍ من الإسبان في يومٍ من الأيام ؟

فإذا سمعتمْ ما سوف أقصُّهُ عليكم فإنني أتركُ للباقتكم استنتاج ذلك

في ذات ليلة حالكة الظلام خرجتُ متلصِّصاً إلى معسكر الأعداء وقد استخْفَيْتُ في زيّ قسّيس كاثوليكيّ حتى اقتربتُ من خيمة الكونت « أرْتُوا » وكان إذ ذاك يتصدَّرُ مجلساً عسكرياً من كبار رجال الجيش وضُبَّاطِهِ للمشاورة في خُطة الهجومِ على الحصن ، فضربوا لذلك موْعداً في صباح الغد الباكر   قرَّ قرارُهم على أنه إذا ما تفتَّح الصباح تَفتَح جميعُ مدافعهم وعدَّتُها ثلاثمائة مدفعٍ أفواهها في لحظةٍ واحدةٍ فتوقظ بدويّها الهائل المحاصَرينَ في الحصْن وتصُبّ عليهم نارَها الحامية

وهكذا سمعتُ ما دارَ في معسكر العدوِّ بأذُنيّ ولم تفُتني شاردةٌ منه ، فلما انتهى المجلسُ وتفرّق أعضاؤه وشملَ السُّكونُ المكانَ خرجتُ من مخْبَئي ورُحْتُ أجُوسُ خلال خيام المعسكر وأنا أفكرُ في وسيلةٍ لأقضي بها على خطةِ الأعداءِ   ويحسُنُ بي أن أنوّهَ كيف أن جميع رجال المعسكر استغرقوا في سُباتٍ عميقٍ ، بل إن الحرّاس تركوا أماكنهم واستسلموا للنَّوم رغبةً منهم في استجماع نشاطهم لهجوم الغدِ الكبير

فلما دقَّتِ الساعةُ الواحدة من الصباح وكنتُ قد انتهيتُ إلى خطَّةٍ

معيَّنةٍ تسرّبْتُ في هدوءٍ إلى إحدى بطاريّات العدوّ وتخيَّرتُ أكبر مدافعها وأثقلَها فرفعتُهُ من مكانِهِ وقذفتُ به في البحرِ فسقطَ على بعدِ ثلاثة أميالٍ من الشاطئ وإذا كان النجاحُ حليفي في التخلّص من هذا المدفع الثقيل فلا شكَّ أن مهمَّتي أصبحتْ أهْوَنَ عندما أخذتُ أتخلَّصُ من مدافع العدوِّ الأخرى واحداً واحداً ، فكانت جُملةُ ما ألقيتُ منها في الماء ثلاثمائة وستَّةٍ وعشرين مدفعاً حتى أضناني الجهدُ بعد هذا العمل الشاقِّ ، ومع ذلك فلم أتخاذل عن جمعِ مركباتِ الميرة والذخيرة وغيرها من مُعَدَّات العدوِّ في كُومةٍ واحدةٍ وأشعلتُ فيها النارَ

وما أن دوى انفجار البارود في الفضاء حتى عمّ الذعرُ الأعداء فأسرعَ الكونت « أرتوا » إلى الانسحاب بخُطاً سريعةٍ وتبعهُ جيشهُ ، ولم يستقر لهم قرارٌ حتى وصلوا إلى باريس بعد أربعةَ عشرَ يوماً وكان من جرّاء الفزع الذي أصابهم عند حدوث الانفجار أن اضطربتْ بطونُهم وأصابتْهم وعكةٌ شديدةٌ استمرّتْ ثلاثة أشهرٍ كاملةٍ لم يتذوّقوا خلالها طعاماً ، بل كانوا يعيشون على الهواء



حدث بعد سبعة أسابيع أو ثمانيةٍ أن كنتُ جالساً ذات صباحٍ حول مائدة الفطور مع الجنرال « إلِّيوت » فإذا بقنبلةٍ تخرقُ الغرفةَ وتسقطُ بيننا على المائدة فأسرعتُ ونزعتُ الكبسُولةَ منها ، وبينما كنتُ أطِلُّ من النافذة على معسكرٍ قريبٍ للأعداء وجدتُ جمعاً محتشداً ، فلما دققتُ النظرَ بالمنظار المقرَّب رأيتُ مشنقةً منصوبةً وضابطين إنجليزيين كان قد قُبض عليهما في الليلة الماضية وحُكم عليهما بالموت شنقاً لاتِّهامهما بالجاسوسيَّة

قرَّرتُ أن أفعل شيئاً وأن أضعَ حداً لهذا المنظرِ ، ولما كان من العسير أن ألقي القُنبلة بيدي لبِعُدِ المسافة بيننا التجأتُ إلى استخدام المقلاع الذي سبقَ أن حدَّثتُكم عنه ، وبعد أن جهّزتُ القنبلةَ بكبْسُولةٍ جديدةٍ قذفتُ بها على ذلك المكان الذي نُصبت عليه المشنقةُ ، فسقطت في وسطه وانفجرتْ في الحال فأصابتْ جميع الواقفين وقضت عليهم ولم ينجْ من شرِّها إلا ذانِك الإنجليزيان إذ كانا معلَّقين في الهواء كما نجا الجلاَّد الذي كان واقفاً على رأس السلَّم ثم انتشرت شظايا القنبلة فأصابت أعمدة المشنقة فهدمتها وأصابتَ الجلاّدَ هذه المرة فمات أمّا الضابطان فوقعا بين الموت والحياة

وبعد قليل عاد أحدُهما إلى صوابه فحلّ الحبلَ القنَّبَ الغليظ من حول عنقه كما فعل ذلك زميلهُ . فلما وقفا على قدَميهما وجدا كلّ من حولهما قد فارق الحياة ولكن لم يطل السُّكونُ حتى مزَّقته أصواتٌ غاضبةٌ اندفع أصحابها على عجلٍ من المعسكر القريبِ . وكان من الطبيعي ألا ينتظر الضابطان تكرار المأساة بل أطلقا السيقان هرباً إلى الشاطئ واستوليا على ظهر قاربٍ مربوطٍ بعد أن قيّدا ملاّحين وجداهُما نائمين في جوفه وسارا به إلى إحدى سفننا الرَّاسية

كانت هذه المرَّة الوحيدة التي استخدمتُ فيها ذلك المقلاع في شأن من شؤوني ، ولما كان ضعيفاً لا يحتمل هذه المحاولات العنيفة فقد تمزّق أكثره بفعل تلك القنبلة ولم يبقَ منه إلا مقبضُه لهذا احتفظتُ به بين

مخلفات الأسرة التاريخيّة ، التي إن تفضَّلْتم بزيارة منزلي فإنني سأكون جدَّ مُغتَبطٍ بإطلاعكم على كثير من طرائفها

نزحتُ من جبل طارق بعد ذلك بقليل وسافرتُ إلى انجلترا وهناك جرى لي حادثٌ أعدّه أعجبَ ما وقع لي في حياتي

كان ذلك في يوم ٤ يونيه على ما أذكر كنتُ قد سافرتُ إلى ميناء « وابِنْج » لأشحن بضاعةً بطريق البحر إلى « هَمْبُرْج » ، وبينما كنتُ سائراً على ساحل البحر وكانت الشَمسُ تُرسِل أشعَّتها الذهبيَّة على الأرض وكان التَّعبُ قد أخذ مني مأخذَهُ ، بحثْتُ عن مكان ظليل لأقيل فيه فلم أجد أروحَ من فُوهةِ مدفع ضخم كان منصوباً في ذلك المكان فتسرَّبْتُ إليه وتمدَّدْتُ فيه

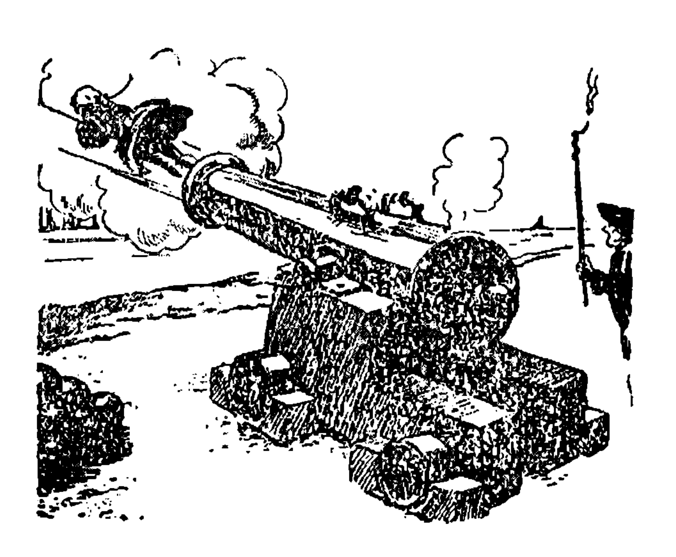
كان ذلك اليوم عيد ميلاد ملك الانجليز ، وكانت جميع المدافع في صباح اليوم قد حشيتْ بالبارود استعداداً لإطلاقها إذا ما دقت الساعة الأولى بعد الظُهر وكنتُ جاهلاً أمر هذا كله ، وسُرعان ما غلبني النُعاس فاستغرقتُ في نوْمٍ هادئٍ مختفياً عن الأنظار في فُوهةِ ذلك المدفع

وعندما دقَّت الساعةُ الأولى تماماً جاء المدْفعيُ وأشعل البارودَ فانفجر وحمل صديقكمْ « مونشهاوْزن » في الفضاء يتقدَّمه رأسُهُ فشَقَّ الفضاء على هذا النَّحو فوق مياه نهر التيمز الذي كان عرضه ستة أضعاف عرض نهر الإلب عند همبرج ثم سقط صديقكم وانغرسْ رأسُه في جَوْف كومةٍ من التِّبْنِ

وكان الذهول الذي أصابني جعلني أتابعُ غفوتي وأستمرُّ في نومي الذي كنتُ مستغرقاً فيه منذ أن اختفيتُ في فُوهة المدفع ، ولولا أن أحد الفلاّحين جاء بعد ذلك بثلاثة أشهر ليحملَ التِّبنَ إلى السُوق لكان من المحتمل جداً أن أستمرَّ في نومي إلى ما بعدَ هذا التاريخ

لاحظتُ في بعض الأحيان أن بعض الجالسين إذا ما استمع

إلى روايةٍ من هذه الروايات يعتريه الشك في حقيقتها ويبدو ذلك على مُحيَّاهُ ، ولكي أثبت أنّ ما رويته حقيقةٌ لا يعتورها الشكّ ، أذكُرُ لكم أن شجرةً من شجر البرقوق كانت قائمةً في جوارِ كومة التِّبْن التي كنت نائماً في جوفها ، ففي شهر يونيه كانت الشجرةُ مزهرة ليس إلا ، فلما استيقظتُ رأيتُ أغصانها وقد مالت بأشهى ثمر البرقوق وأطيبه حتَّى أنني لم أتمهَّل بل قطفتُ وأكلتُ بشهية عجيبةٍ



وقد كانت دهشة أصدقائي في لندن عظيمةً لاختفائي عنهم ثلاثة أشهرٍ كاملةً بحثوا خلالها عنّي في كلّ مكان عبثاً ، حتى عُدْتُ إليهم في يومٍ من أيّام سبتمبر الباردة في لباسٍ من ملابس الصَّيفِ ويمكنكم أن تتصوّروا يا أصدقائي مبلغ دهشتهم!

الليلة الثالثة عشرة

لا أدري يا أصدقائي ويا رفاقي هل سمعتم بالرّحلة العلمية التي قام بها الكابتن «فِبْس» الذي يدعونه الآن اللورد ميلجريف -وهي الرحلة التي جاسَ فيها خلال البحر المتجمد الشّمالي ؟ ففي هذه الرحلة رافقت الكابتن لا كضابط بل كصديق ، وبعد أن خلّفنا جزيرة «شبِتْزبِرْجِنْ» وراءنا قضينا أربعة عشر يوماً لا نرى فيها إلا الماءَ والهواءَ وكانت تتراءى لنا من بعيدٍ جبالُ الثلج العائمة التي كان ارتفاعُها يبلغ ثلاثة أضعاف أعلى ساريةٍ في السَّفينةِ

من عادتي إذا كنتُ في رحلةٍ من الرحلات أن أدقّق النظرَ حواليَّ لأتعرّف طبيعة المكان وما قد يحتويه من غريبٍ أو طريفٍ . فرفعتُ مِنْظاري المُقرِّب وأخذت أرقُبُ المكان الذي كنّا فيه فرأيتُ على أقرب جبلٍ ثلجيٍّ -وكان يبعدُ عنا نصف ميل- دُبّيْن قُطبيّيْن يتعاركان على ما يظهر ، فأسرعتُ وحملْتُ بندقيّتي وسرتُ إلى حيث المرتفعُ وكلّما اقتربتُ من قمّته تعثّرتُ في السَّيْر من الإعياءِ والخوفِ من المخاطرِ التي قد تُصادفني ، وقد كاد يحدثُ ذلك بالفعل عندما حاولتُ أن أعبُر هُوّةً سحيقةً . لم أسِرْ طويلاً حتى اقتربتُ من مكان الدُبّيْن ولشدّ ما كان عجبي عندما وجدتُهما يلعبان ولا يتعاركان

وعندما دقّقْت النَّظر فيهما وجدتُ أن الواحد منهما في حجْم الثّورِ الكبير على الأقل ، ثم حَسَبْتُ بيني وبين نفسي ثمن فرائهما الفاخر ، فأنزلتُ بندقيَّتي وما كدْتُ أفعلُ حتى انزلقتْ قدمي اليُمنى فوقعت على الأرض وكان من شدَّة الصَّدمة أن فقدتُ شعوري وأصِبْتُ بإغماءٍ شديدٍ ، ولما فتحتُ عيني -ولعلَّ ذلك بعد نصف ساعةٍ- وجدتُ نفسي في موقفٍ لا أغبطُ عليه ، رأيتُ أحد الدبّين وقد انحنى عليَّ وجهاً لوجه بل إنه التهم الحزامَ الجلديَّ الذي أربط به سرْوالي يا لهُ من موقفٍ هائل! لقد كان صدري تحت بطنه ، أما سيقاني فكانت طليقةً لستُ أدري حقاً كيف جرَّني الدبُ إلى هذا المكان ؟ وكلُّ ما فكَّرت فيه هو أن أخرجتُ سكّيني -هذه السكين التي ترَوْنها الآن بأعينكم- وقبضتُ على رجل الدبِّ الخلفيَّةِ اليُسرى وقطعتُ ثلاثةَ أصابع من قَدَمِهِ!

وما قدَّرْتُه حصل بالفعل ، فإن الدبَّ أخذ يزعقُ ويعوي من شدَّة الألم فتركني أتزحزحُ من مكاني حتى تمكنتُ والتقطتُ بندقيَّتي التي كانت ملقاةً قريباً منّي وأطلقت منها رصاصتين في صميم قلبه وما هي إلا لحظةٌ حتى ارتمى على الأرض -أقصدُ على الثَّلج- فاقدَ الحياة ، نعم لقد تمكَّنتُ من قتل أحد هذه الوحوش الضَّارية الفتَّاكة ، ولكنَّ هذه الطلقة سُرعان ما جمعتْ عليَّ الآلاف من الدِّبَبة التي كانتْ نائمةً فاستيقظتْ فأحاطتْ بي في شبْهِ دائرةٍ نصفُ قطرها نصفُ ميلٍ!

من كلِّ مكان ومن كلِّ صوبٍ وحدبٍ ، أقبلَتْ نحوي هذه الحيوانات الفاتكة ، ليس هنالك وقتٌ ليضيعَ سُدىً لا! بل إنّ حياتي نفسَها قد ضاعتْ إذ ليس لديَّ وسيلةُ الخلاص

والآن ماذا أنا صانعٌ ؟

فعلْتُ ما يفعل الصيَّادُ المتمرِّنُ عند سلْخ الأرنبِ ، إذ عمدتُ إلى الدُبَّ المقتول فسلختُ جلده ثم دخلْتُ فيه واختَفيتُ وأخرجتُ رأسي من فتحةٍ تحت رأس الدبّ حتى كان من يراني في تلك الساعة يظُنُّني الدُبَّ

نفسَهُ ، وما هي إلا دقيقةٌ بعد أن انتهيتُ من هذا العمل حتى وصل إلى مكاني الصفُّ الأوَلُ من قطيع الدببة ، وكان لا يقل عن عشرين دُبّاً وما هي إلا دقائقُ حتى كان المكانُ حولي يصخبُ بمئات من هذه الحيوانات

لقد كنتُ أحسُّ وأنا مُتدثِّرٌ بهذا الفراء السَّميك بالبَرْدِ تارةً وبالحرارة الشديدة أخرى ، ولكن براعتي في الاختفاء لم تخنّي كان المكانُ حولي كما قلت يزْخَر بهذه الحيوانات الكاسرة التي كانت تزوم وتهمهم وتدورُ حولي كأنها تبحثُ عن شيءٍ فقيدٍ ، ولا شكَ أنها خُدِعت بالقناع الذي ألبسُه فلم تهاجمني حتى ظننتُ أنَ الأمر قد انتهى عند هذا الحدِّ إلى أن وقع حادثٌ عجيبٌ ، وذلك أن هذه الحيوانات أخذت ترقصُ وتتمايلُ وتدفعُني وكأنَّها تدعوني إلى مشاركتها في ألعابها . فلم أتردَّدْ بل طفِقْتُ أحاكيها بقدرِ ما أستطيع تمثيلَه من هذه الحركات ، بينما أخذتُ أفكِّر في الوسيلة التي أستطيع بها أن أتخلَّص من هذه الصُحبة التي لا خيْر فيها

تذكَّرتُ في تلك اللحظة أن الضَّربةَ التي يُطعَن بها المقاتلُ من الخلف طعنةٌ قاتلةٌ مميتةٌ لساعتها ، لذلك فكَّرتُ في أن أستعين بها في الخلاص من هذا المأزق فلم أتردَّدْ بل قبضتُ على مُديتي وطعنتُ بها أضخمَ هذه الدِّببة في أعلى ظهره بين كتفيهِ

لستُ ألومُكم إذا سألتموني عمَّا إذا كانت هذه الطعنة محاولةً جريئةً من جانبي ؟ والحقيقة أنها كذلك ، لأنه من الواضح أن هذا الوحشَ إذا لم تقْتلْه الطعنةُ انقلبَ عليَّ وانتقم منِّي شرَّ انتقام ، ولكنَّ محاولتي والحمد لله تكلَّلت بالنَّجاح ؛ ودون أن يُحْدِثَ الدُّبُّ صوْتاً سقط كالصخرة الصمَّاء تحت أقدامي

فدفعني هذا الانتصارُ إلى أن أكرِّرَ التجربة آلاف المرات ، وكان من حُسن حظِّي أنني قد تناولتُ كفايتي من الطَّعام على مائدة الفطور لهذا كنتُ أحسُّ بالنشاط كلَما قطعتُ شوطاً في هذه المهمَّة ، فكنتُ

أطيحُ بهذه الدِّبَبة ذات اليمين وذات الشمال حتى أتيتُ على آخرها عند ذلك خرجتُ من مخبئي مُنتصِراً كما فعل شمشون عندما قضى على ألفٍ من الفلسْطينيين

ثم إنني ذهبتُ إلى السّفينة وعُدتُ ومعي ثلاثةُ أرباع مَنْ عليها من الملاّحين والعمّال الذين طفِقوا يسلَخونَ هذه المئاتِ من الدِّبَبة حتى إذا ما انتهوا عادوا بفرائها الثَّمينةِ إلى ظهرِ السَّفينة

وعندما مالت الشمسُ للمغيب كانت مُهمَّتي قد انتهتْ ، وكم أسِفَ القبطان «فِبْسْ» على أنّه لم يَشْترِكْ في هذه المعركة الهائلةِ التي انتهتْ بغنيمةٍ عظيمةٍ من فراءِ الدُّبِّ

قمتُ برحلةٍ بحريةٍ أخرى بصُحبةِ القبطان «هَمِلْتُنْ» إلى جُزُر الهند الشرقيَّةِ ، وقد حدث أثناء هذه الرِّحلةِ أن كنتُ أصطَحِبُ كلباً بارعاً من كلاب الصَّيد ، ففي يومٍ من الأيام اجتمع الرَّأيُ -بناءً على ماقام به الرُّبَّانُ من دراسةٍ ومن حسابٍ- على أنَّ سفينتَنا تبْعُد عن أقرب شاطئ بما لا يقلُّ عن ثلاثمائة ميلٍ ، بَيْدَ أنَّني اعترضتُ على ذلك إذ لاحظتُ أنَّ كلبي منذ ساعةٍ مضت يُبدي من الحركات ما يدلُّ على أن ثمة وحشاً من الوُحوش قريباً منّا ، ولكنَّ هذا الاعتراض لم يفعل أكثر من أن يُثير عاصفةً من الضَّحِكِ بين رجالِ السَّفينة لأنه يناقضُ ما تدلُّ عليه الخرائطُ البحريةُ

ولمّا كانت ثقتي بكلبي لا تَحْتَمِلُ الشكّ لم أتردّدْ ، بل تحدَّيْتُ القُبطان برهانٍ قدرُهُ مائةُ جنيهٍ على أننا سنلتقي بعد قليلٍ بوحشٍ من الوحوشِ . فلمّا سمع القُبطانُ هذا -وكان رجلاً طيِّبَ القلب- ابتسم وهزَّ كتِفَ طبيب السفينة ، وقال له

- «إنني لا أقبل رهاناً إذْ أشكُّ في سلامةِ عقْل مونشهاوزن!»

فأجابه الطَّبيبُ همْساً ، ولكنْ بصوتٍ يتسنَّى لي سماعه

- «لا يا سيِّدي القبطان! إنه في تمام عقله وصحّتِه غير أن ثقتهُ بأنف كلْبِه أشدُّ من ثقتِهِ بعُقول جميع مَنْ على هذا المركبِ من الضباطِ ، وأنه سـيـفـقـدُ الرهانَ ولا ريْبَ في ذلك ؛ ولكنْ مع ذلك فله أن يكسبَهُ .»

وفي أثناء ذلك كنتُ أراقبُ كلبي ، فازْدَدْتُ يقيناً بأنه لا يكذبُني لهذا لم أتردَّدْ في أن أعرضَ الرّهانَ مرّةً أخرى على القبطان الذي لم يرَ بعد ذلك كلّه وسيلةً إلا الموافقة ، وما كدْنا ننتهي من المصافحة -دليلاً على قبولِ الرّهان- حتى كان بعضُ الملاحين الذين يشتغلون بالصَّيد يسحبون كلباً كبيراً من كلاب البحر إلى ظهر السفينة! عند ذلك ازداد اضطرابُ كلبي كما يفعلُ عادةً عندما يقتربُ من صيدٍ بريٍّ . ولما فتحْنا بطن كلب البحر وجدنا ستَّة أزواجٍ من الإوزِّ البرية وكانت جميعها حيةً . ولا شكَّ في أن هذه الطيور المسكينة كانت قد قَضَتْ مدةً طويلةً في سجنِها هذا لأننا ألفينا إحداها راقدةً على سبعَ عشرةَ بيضة

وفي تلك اللحظة التي فتحنا فيها بطنَ السَّمكة فقست إحدى هذه البيضاتِ

فأخذنا هذا الكتكوت ووضعناهُ مع أسرة من القُطيطات كانتْ قد وُلدتْ في تلك الساعة وسرعان ما توثقت الصداقة بين الكتكوت وبين القُطيطات الأربع ولم تخلُ مائدتنا خلال هذه الرحلةِ من الطيور المشويّةِ إذ كانت تلك الوزاتِ تبيضُ وتفقِسُ بغير انقطاع

قضينا في رحلتنا هذه بضعة أسابيع حتى وصلْنا إلى مكانٍ يبعُدُ مائة ميل إلى الغرب من سومَطْرَه فعبرنا خط الاستواء بشمسه اللافحة ويَمَّمْنا شمالاً في خليج البنغال صوبَ كَلْكُتا ، عند ذلك أبصرنا قطيعاً من الأسماك الهائلة أحاطت بالسَفينة حتى أن سُرعتَها تأثَّرتْ كثيراً بفعل هذه الأسماك

كانت إحداها من الضَّخامة بحيث أننا لم نستطع تقدير طولها حتى استعنَّا في ذلك بالمنظار المُقرِّب! وأخذتْ هذه السمكةُ الهائلةُ تقتربُ منّا شيئاً فشيئاً حتى إذا حاذتنا فتحتْ فماً واسعاً كالبوَّابة الضَّخمة فانحرفَتْ سفينَتُنا نحو هذا الفم المفتوح بسارياتها وأشرعتها وجميع ما عليها وكانت السّارية الكُبرى تبدو لنا بين الأسنان والأنياب وكأنَّها عودُ ثقابٍ ، ولا أظنكم تصدقونني إذا أكدت لكم أن مقامنا بين فكَّي هذه السمكة كان مُريحاً ممتعاً ، مع أنكم تعلمون عني أنه يستحيلُ عليّ أن أكْذِبَ أو أغيِّرَ الحقيقة . ولعلّ رغبتي في تصوير الواقع على حقيقته طبيعةٌ متأصِّلةٌ عندي لأنني أعرفُ أقرباءَ لي نزلتْ بهم إصاباتٌ خطيرةٌ في بعض مواقع القتال لا يتحدَّثون عنها اليومَ إلا في صورةٍ هي دون حقيقتها



وبعد أن مكثْنا وقتاً حيث كنا ، فتحت السمكة فمها فاندفع الماء فجرف سفينتنا -ولم تكن مركباً صغيراً- إلى جوْفها ، وهنالك وقد امتنعتْ الرِّياحُ جمدْنا في مكاننا أما الهواء فكان دفيئاً مُشبعاً ببخار الماء لهذا لم يكن محتملاً ، أما الظلامُ فكان دامساً في هذا المكان الحبيس ولم تكن تنيره من وقتٍ إلى وقتٍ إلا أضواءُ بعض المشاعل التي لم يسْطعْ نورُها إلا في دائرةٍ ضيّقةٍ غير أنها كانت تُضفي على المكان بأسره شيئاً من وقتِ الغسق ، وهناك في جوفِ هذا الحوت وجدنا أكثر من هلب سفينة واحدة وأحمالاً من السّلاسل الحديديّة وقواربَ وعدداً لا يُحصى من السّفائن بعضُها محمّلٌ بالبضائع وبعضها فارغٌ وجميعُها قد وجدت طريقها إلى بطن هذا الحوت

أما الشمسُ والقمرُ والنجومُ فلم يكن من سبيل لرؤيتها في هذا المكان وكان من البديهي ألاّ يكون للنهار أثرٌ في هذا العالم السفليّ ، وكان الماء الذي يطفح به بطنُ الحوت يتأثرُ بعاملي المدّ والجزرِ كما تتأثرُ بهما مياهُ البحر ؛ ففي كلِّ يومٍ ترتفعُ مياهُ المدّ ثم تعود إلى الهبوط ، فإذا ما فتح الحوتُ فمهُ للشرب تدفقتِ المياه وأصبح جوفُه وكأنه بحيرةُ « جنيف » اتِّساعاً ، فلا يقلُّ مُحيطُهُ عن ثلاثين ميلاً ثم يأخذ هذا الماء في الهبوط شيئاً فشيئاً حتى إذا بلغ الجزرُ حدّه مالتْ جميعُ السُّفُن كما تميلُ في الماء الضحضاح إلى أن يعود الماء ثانيةً فيحْملِها على متْنِهِ . فإذا كانت ساعةُ الجزرِ كنَّا نخرُجُ على أقدامنا نتبادل الزِّيارة بيننا وبين غيرنا من المسجونين في هذا المكان ، أمّا في ساعات الفيضان فكنّا نستخدمُ صغارَ القواربِ لنصلَ إلى جيراننا ، وقد علمتُ أن بعض هؤلاء قضى في هذا الحبس بضع سنين

وإنني لا أكادُ أعقلُ كيف أن هؤلاء النَّاس ارتضوا أن يعيشوا في هذا المكان أعواماً طويلةً دون أن يجدوا لأنفسهم مخرجاً ، ولو أنهم تمكنَوا من فتح حفرة في جسمِ هذا الماردِ أو أنهم عملوا على القضاء عليه بتخريب صمامات قلبه لتمكنوا من الخلاص ثم إنني اجتمعتُ بمقدَّم سفينتنا وأخذت وإياه نتباحثُ فيما إذا كان من الميسور أن نرْبطَ عدَّة من السَّواري معاً ، فإذا فتح الحوتُ فاهُ ثبّتناها بين فكَّيْه حتى يمتنع عليه قفلُهُ فلما انتهينا إلى هذا الرأي تخيَّرْنا سبعاً من كبار السَّواري وحَزَمْناها معاً ثم تخيَّرْنا مائة من الرِّجال الأشداءِ ليكونوا على استعدادٍ حتى إذا فتح الحوتُ فاهُ ثبَّتوا هذه السَّارية بين فكَّيه فمنعوا لسانه الهائل من الحركة ومنعوا فكَّيْه من الانطباق ثانياً

فما أن اندفع الماء إلى جَوْفِ الحوت حتى بدأتْ صنوفُ من القوارب والسُّفُن كبيرها وصغيرها تتلمَّسُ طريقها للخروج ولم يُطْبق هذا الماردُ فكَّيْه إلا بعد أن وجدتْ هذه الجموع المحتشدة سبيل النجاة والحريَّة ولم يتخلَّف إلا النَّزرُ القليلُ الذي كُتِبَ عليه أن يعيش في هذا العالم المجهول

خرج هذا الأسطولُ في شَكْل مظاهرةٍ بحريَّةٍ بديعةٍ نظَّمها أكبرُ القباطنة سناً كانت عدةُ هذه القافلة سبعين سفينةً ونيِّفاً عدا صغار القوارب والمراكب

وعندما خرجنا إلى الهواءِ لم نكن نعرفُ أين كُنَّا ؟

بيد أن جميع ضُبَّاط هذه السُّفُن -وهم من شعوبٍ وأجناسٍ مُختلفةٍ- اجتمع رأيُهُم على أننا في بحر قزْوين وهو -كما تعرفونَ- بحرٌ مُغلق لا يتَّصلُ بغيره من البحار ولا يُصبُّ في محيطٍ من المُحيطات . لذلك كان هذا دليلاً لا يقبل الشَّكَّ على أنّ هنالك بحاراً سفلية تصلُ البحارَ بعضَها ببعضٍ ، فجاء ذلك الحوتُ بنا من المحيط الهنديِّ إلى هذا البحر عن طريق هذه المجاري الأرضية



أقلعت سفُننا كلُّ جماعةٍ منها في اتجاهٍ خاصٍّ ، ولم يأتِ المساءُ حتى وصلْنا جميعاً إلى الشاطئ الدائريّ الذي يحيطُ بنا . ولما بلغت سفينتُنا مرساها كنتُ أوّل من وثَبَ منها إلى الأرضِ فلم أسر طويلاً حتى استرعت سمعي غمغمةٌ عاليةٌ وما أن تلفتُّ حتى أبصرتُ بجانبي دُبّاً

أخذَ يقتربُ منّي وهو فاتح ذراعيْهِ كأنه يستقْبِلُني ، فلم أتهيَّبْ بل تقدَّمتُ منه وأمسكتُ بكلتا كفَيْه وهزَزْتُهما هزّاً عنيفاً لأردَّ تحيَّتَه ، ولكن شدَّة قبضتي جعلتْهُ يحاولُ الإفلاتَ مني وأخذ يعْوي ويصْرُخُ من شدَّةِ الألم ، ثم إنني خفَّفْتُ عنه شدة القبضة ولكنْ تركْتُهُ واقفاً على قدميه عقاباً له حتى عضّه الجوعُ

ولا أدري كيف عاد القبطانُ هملتن إلى انجلترا ؟ وكلُّ ما أعلمه أنه مرّ بي في اليوم الثاني مائتان من رفاقنا من نُزلاء جوْفِ الحوت وهُمْ في طريقهم إلى إيران ، فلم يكنْ منهم إلا أن اختاروني قائداً لهم في رحلتهم ودليلاً لقافلتهم ، وقد صحبني في هذه الرحلة عشرون من رجالي!



الليلة الرابعة عشرة

وصلنا إلى مدينة باكو على بحر قزوين وسارت قافلتُنا جنوباً بحذاء الشاطئ حتى وجدنا أنفُسَنا في إحدى المقاطعات التي يحكمها شاهُ إيران ، وسُكّانُ هذه المنطقة من أهل القوقازِ الذين اشتهروا منذ القدم بنزْعتهم إلى الحرية وعدم خضوعهم خضوعاً فعلياً لسُلطان الشاهِ كما أنهم لا يعترفون بسلطة القيصرِ عليهم ، لهذا كانوا يقطعون طريق القوافل التي تخْترقُ هذه الولاية غرباً أو جنوباً حتى أصبح السفرُ فيه لا تؤمَنُ عواقبَهُ

وفي عشيَّة أحد الأيام وقبل أن تغيبَ الشمسُ وصلْنا إلى وادٍ ممرع يُرويه أحدُ الينابيع ؛ ولما كان التعبُ قد أخذ منَّا مأخذَه رأى أصحابي أن يقضوا المساء في هذا المكان فأنزلت القافلةُ رحالَها وكانت عدتُها نحو مائتين وخمسين رجلاً ، وتخيَّرتُ صخرةً في وسط الوادي استخدمتُها كمِنْبرٍ للخطابة أجمع حولهُ رجالي ؛ وبصوتٍ كزئير الأسد تجاوَبَتْهُ أركانُ الوادي وقفتُ فيهم خطيباً وأنذرْتُهم بصفتي دليلهم المختار بأن هذا المكان لا يصلُح للإقامة لأنه عرضةٌ لهجوم هذه القبائل الجبليّة المسلّحة التي تمضي جماعاتٍ جماعاتٍ وعلى رأس كلّ جماعةٍ قائدٌ مدجَّجٌ بالسِّلاح يسيرُ في مقدمتهم وهو مُتنكِّرٌ في زيِّ امرأةٍ . ثم إنني منحتُ

رجالَ القافلة ساعةً ليتشاوروا ويقرِّروا إما مُواصلة السَيْر معي وإما البقاء في هذا المكان

ثم إنني تركتُ المعسكرَ يتبعني اثنان من رجالي الخلصاء وذهبْنا باحثينَ عن مكانٍ آمِن في بطن هذا الوادي ، فارْتقينا مُرتفعاً صخرياً يصل سلاسل الجبال القريبة بأكوام متناثرة من الصخور ، لهذا كان من السهل الدفاعُ عنهُ إذا هاجَمَهُ الأعداءُ ، فلمَّا عُدنا إلى المعسكر وجدْنا جماعتنا قد أوقدوا النارَ وأعدّوا المواعين لطهْو العشاء ، فارْتقيْتُ منبَرَ الخطابة مرَةً ثانيةً في هدوءٍ وقد شاعت في وجهي ابتسامةٌ ساخرةٌ وعرضتُ عليهم أن ينْسحِبوا من هذا المكان في الحالِ إلى رأس تلك الصخرةِ حيثُ السلامةُ وحيثُ ماء النبع وفيرٌ ، فمن رضي بقيادتي دعوته أن يتبعني ، ومَن أبى إلا أن يقبعَ في مكانه فهو وشأنُه

وما أن انتهيتُ من كلامي حتى تصاعَدَتْ من المُعسكَرِ جلبةٌ وضوضاء حتى إذ سكنتْ لم أجدْ حولي إلا أربعين رجلاً من خِيارِهِم

أمّا بقيّةُ الجماعة وهم مائتان على الأقل ففضّلوا البقاء حيث كانوا فلمَّا ارتقينا إلى قمَّة الصخرةِ وطلع القمر ألفينا ذلك المعسكرَ من تحتنا وقد بدا في ضوء القمر رائعاً بديعاً

وما أن انقضت بُرهة حتى طرق آذاننا صياحٌ وزعيقٌ ونداءٌ كما يحدثُ إذا خاض الهنودُ الحمرُ حرباً أو قاموا بهجومٍ مفاجئٍ على عدوّ ، فتجمّعْنا على حافة صخرتنا المنيعة وأبصرنا من مكاننا المرتفع جماعةً من قطّاع الطُرق يشنُّون هجوماً خاطفاً على معسكر أولئك النّائمين في بطن الوادي وهم أقلّ منهم عدداً بكثير . ولم تستمر الموقعةُ بين رجال القافلة وقطّاع الطريق إلا وقتاً قصيراً انتهتْ بقتل الكثير من رجال القافلة وأُخِذَ من بقي منهم أسيراً . لقد كان عقابُ هؤلاء سريعاً ولكنه كان عقاباً فظيعاً ورهيباً . ومرَ بخاطري في تلك البرهةِ أن أندفعَ لتخليص هؤلاء الأسرى ولكنني وجدت أن كل محاولةٍ لا بدَّ أنَّ مصيرها الفشلُ ، وإن هي دلّتْ على شيءٍ فعلى الحمق والطيش ، لهذا أجْمعنا الرأيَ على الانتظار مكاننا حتى مطلع الفجْر

فلما كان اليوم الثاني عاودنا المسيرَ ، وكان طريقُنا بجانب مكان الموقعة التي جرت في ليلتنا الذاهبة فوجدْناهُ مهجوراً ، وقد رأيتُ من أصالة الرّأي أن نختفي على نسق قطّاع الطُّرق في زيِّ النِّساء ففعلْنا وسرتُ في مقدّمةِ الجماعة حتى إذا انحرفنا قليلاً عن مكان المعركة وجدْنا قافلةً من الخيل على رأسها ثلاثةٌ من الشّراكسة ، وقد رُبطتِ الجيادُ الواحدُ منها إلى الآخر ، وكانت لا تقلُّ عن ستّين فرساً . وما أن رآنا الشراكسةُ حتى تركوا جيادَهم وأقبلوا علينا على عجلٍ وقد كانت ملابسنا سبباً في غوايتهم

نصحتُ جماعتي أن يلتزموا جانب الهدوء فلا يُحدثوا صوتاً ولا يستخدموا بندقيَّةً فتبدو حقيقتهم ؛ حتى أقبل هؤلاء الشراكسةُ بوجوهٍ ساخرةٍ مطمَئنةٍ ، وما أن اقتربوا من رجالنا المقنَّعين في زيّ النساء حتى أنفذ كلُّ واحدٍ منهم خنجراً في ظهر واحد من هؤلاء المعتدين ، فسقط ثلاثتهم على الأرض دون أن يُحدثوا صوتاً أو يحاولوا المقاومة ثم وثبْنا على تلك الخيول نُسابق الريحَ ، وكان أصحابُها في تلك السّاعة يتقاسمون الغنائمَ التي نهبوها بالأمسِ وما هي إلا لحظاتٌ حتى كنّا على مسافةٍ بعيدةٍ من الأعداء ثم توقّفنا بعد قليلٍ عند جدولِ ماءٍ لنسقيَ هذه الخيولَ فخلعْنا ملابسنا النّسوية وألقينا بها ونحنُ نضحكُ ونسخَرُ

لم نَسِرْ طويلاً حتى اعترض طريقَنا جماعةٌ من حرسِ الحدودِ الإيرانيةِ الذين أخذوا يسألوننا عن غايتِنا وعن الغرض من هذه الرِّحلة وما أن أعلنتُ لهم اسمي وبيَّنْتُ لهم حقيقتي حتى استنتجوا بالبداهةِ أنني ذاهبٌ لزيارة صاحب الجلالة الشّاه ؛ فما كان منهم إلاّ أن خلعوا قَلانسَهُم عن رُؤوسهم احتراماً وأخذوا يغمغمون باللغة الفارسيَّة يُحيُّون صاحبَ السعادة البارون فون مونشهاوْزن

وبعد يومين وصلْنا مدينة طهران ، غير أننا فوجئْنا بخبر سفر الشاهِ وجميع حاشيته إلى شيراز قبل ذلك بأيّام ، فأسِفْتُ لذلك جدّ الأسف

وكان الترحيب بنا بالغاً في كلِّ مكانٍ نزَلْناهُ وكنا نُقابَلُ كما تُقابل

الملوك ، وأخذت الجماهير تنضمُّ إلي رِكابنا حتى إذا كان اليومُ الثَّامن دخلنا مدينةَ شيرازَ على رأس مائة ألف رجلٍ! وكانتْ أخبارُنا تصلُ إلى الشَّاهِ يوماً بعد يوم يُرسِلها إليه رجالُ الحكومة كلما نزَلنا بلداً من البلاد ، وكانت الجريدةُ الرَسميّةُ لا تفتأ تنشر نُتَفاً من هذه الأخبار كلَّ يومٍ

فلمَّا أن وصلنا القصرَ الصيفيَّ للشاهِ في شيرازَ ألفينا الشاهَ في استقبالنا وقد أحاط به رجالُ القصر وكبارُ رجال الدَّولةِ ؛ عند ذلك نَزَلَ عن جوادِهِ ففعلتُ مثلَهُ ؛ ثمَّ اقترب منّي واحتضنني وأبدى شديد السُّرور للقائي . ثمَ تفضَّل جلالتُهُ فمنحني الوسامَ الأكبَرَ للشمسِ المصنوعَ من الذّهبِ الخالصِ والمُحلّى بوردة شيرازَ التي تغنَّى بها الشاعرُ حافظٌ الفارسيُّ ؛ وفضلاً عن ذلك ، فإن جلالتُهُ أبدى نحوي عطفاً خاصَّاً ، فكان يخاطبني خطاب الندِّ للندِّ إذا ما اختلينا معاً ولم يسمعْنا أحدٌ ، لأن ذلك تنازُلٌ عظيمٌ من جلالتِهِ

الليلة الخامسة عشرة

أصدقائي ورفاقي الأعزَّاء

ربَما كان ما سأقصُّهُ عليكم في هذه الليلة أعجبَ ما مرَّ بي في حياتي الطويلة من مُغامراتٍ ومُحاولاتٍ ، ولا أظنُّني قد أفْضَيْتُ بهذا السِّرِّ قبل اليومِ ؛ ولكنَّكم إذا رَجَعْتم إلى التَّواريخ الفلكيَّة الفارسية تجدون طَرفاً من ذلك العملِ المجيدِ الذي قمتُ به إبَّان وجودي في تلك البلادِ

لم يمضِ على وُصُولي إلى شيراز بضعةُ أسابيعَ حتى أتيحت لي الفرصةُ لأقومَ للشَّاهِ بمُهمَّةٍ باهرةِ النَّتائج ؛ وأريدُ أن أذكرَ لكم بهذه المناسبة أنَّ جلالة الشاهِ كان من بين ما يُعْنى به دراسةُ الشُّؤون الفلكيَّة لا سيَّما فيما يخصُّ القمرَ وأدواره فحدث ذات ليلةٍ وكان القمرُ بدْراً أن خرجنا -وأعني بذلك الشاهَ وأنا- في حدائقِ القصْرِ وأخذْنا نتجوَّل بين العرائش التي كانت تفوحُ منها رائحةُ الوردِ الشَّذيَّةُ ، وكان الشاه ينشُدُ بعض خمريات الشاعر الشَّاهاني حافظِ المشهور ، فإذا به يصْمُتُ فجأةً ويُمْسِكُ بذراعي ويُشيرُ بإصبعه إلى القمر

- أتعْرِف أيَّ نوْعٍ من أنواع الصَّدأ هذا الذي يسوِّد وجهَ القمر ؟

فما كان مني إلا أن أجبتُ

- «لا ، لا! يا صاحب الجلالةِ ليس الذي تراهُ على وجهِ القمر صدأ ؛ بل هو ظاهرةٌ نعرفُها في بلادنا وندْعوها الخُسوفَ وهي تحدُث إذا كان القمرُ مُكتملاً وسقط ظلُّ الأرض على قُرْص القمر المضيءِ ؛ عند ذلك .»

فاعترضني الشاهُ قائلاً

- إذا حاولتَ أن تكون رجلاً مُتفلسِفاً فإن ذلك يجعلكَ تبدو كالأحمق ، فإنَّ ما تراهُ على وجهِ القمر هو صدأ حقيقيٌّ وهو يحدُث بسبب رُطوبة الطَّبقات الهوائيَّة وإذا أردْتَ زيادةَ الإيضاح فما عليك إلا أن تسألَ الفلكيَ الشاهانيَ!



لم أجد داعياً للسُّؤال والاستفسار ، وإن كنتُ قضَّيْتُ الليلةَ وأنا أفكِّرُ في سؤالٍ آخرَ ، هو كيف يتسنَّى للإنسان أن ينفذ بنورِ العلمِ والمعرفةِ إلى العقولِ المظلمةِ التي خيَّمتْ عليها الخرافاتُ ؟

بيد أنني هوَّنتُ الأمر على نفسي وقلتُ إن لكلِّ بلدٍ عاداتها ، فإذا اعتقد أهلُ بلدٍ في أمرٍ من الأمور فمن المنطق السَليم أن نحاول تقريبَ حقيقة هذه الظواهر إلى عقولهم

وقبل أن ينبلجَ الصباحُ تركتُ القصرَ وذهبْتُ باحثاً عن عريف السَفينة الذي جاء في صُحْبتي إلى شيراز ، وقضينا ساعاتٍ طويلةً نفكِّرُ في ابتكار آلةٍ لسحبِ القمرِ إلى الأرضِ حتى يتسنَّى لنا تنظيفهُ وتلميعهُ

فلما انتهينا من التفكير ، ذهبت إلى القصر وتشرّفْت بمقابلةِ جلالة الشاه وأخبرتُه في خضوع واحترامٍ ، بأن كلَّ شيءٍ قد تمَّ إعدادُه ولن تمضي أيامٌ حتى نتمكن من سحب القمر إلى الأرض لنجلوه من الصدأ

فصاح الشاهُ فَرِحاً

- « يا لك من رجلٍ بارعٍ يا مونشهاوزن! وإني لأُقسِمُ لك بلحْيةِ النبيِ بأنك إذا فعلتَ ذلكَ لأرفعُنَّكَ في الحالِ إلى مرتبةِ الإمارةِ

وفي ذلك اليوم نفسهِ أرسلنا في طلبِ ستّمائة عامل نصفُهم لجلْبِ الرِّمالِ والنِّصف الآخر لغربَلَتِها ، وقسَمْنا هؤلاءِ جميعاً إلى ثلاثِ جماعاتٍ يعملون في إعدادِ الرَمْل وغربلته غربلةً دقيقةً حتى يُصْبحَ صالحاً لجلاءِ القمر وتلميعِهِ ؛ وما أن انتهينا من ذلك حتَى بدأنا نقيمُ تلك الآلة التي فكّرْنا فيها طويلاً والتي ستكونُ كافيةً لجذبِ القمرِ إلى الأرضِ ، وبعد أربعةَ عشرَ يوماً بعد تاريخ ذلك الخسوفِ بدأنا في استخدام هذه الآلةِ ، وبينما كان العالمُ المُتَمدِّنُ تجتاحُه الشكوكُ بسبب اختفاءِ القمرِ بضعةَ أيّام -وكان ذلك موْعد ظهور الهلال الجديدِ- كنا في أثناء ذلك في مدينة شيراز قد جذبنا القمرَ وأنزلْناهُ من مكانه ، فوَجَدْنا بالفعل أكْواماً من الصَّدأ تغطِّي وجهه ، فعملْنا على دعْكها وتنْظيفها وجلائِها حتى عاد وجْهُ القمر مُضيئاً مُتلألئاً كما كان

ومنذ ذلك الحين أصبحتِ العادةُ أن يُفْعَل بالقمرِ ذلك كلَّ أربعةِ أسابيعَ

وإني أستميحكم يا أصدقائي عُذراً إذا أعَدْتُ عليكم القولَ لأذكِّرَكم بأنني مُنِحتُ أسْمى الأوسمةِ أثناءَ وُجودي في بلاد إيران وفضلاً عن ذلك ، فإنَّ الشاهَ أهدى إليَّ (كمظهرٍ من مظاهر شكرِهِ وتقديرِهِ لي عند سفري) فرساً بارعةً استخدمتُها بعد ذلك عشرين عاماً ولما ماتت حنَّطْتها ، وكانتِ هذه الفرسُ تسابقُ الريحَ في عدْوِها وكنتُ إذا خرجْتُ للزِّيارة بعد الظُّهْرِ أقطعُ بها ثلاثين أو أربعين ميلاً دون أن تتعَبَ ، وحدث مرّة أن كنتُ أتبَعُ أرنباً بريّاً أخذ يعدُو فوق الحقول حتى اندفعَ إلى الطَّريقِ العام حيث كانت عربةٌ تُقِلُّ سيِّدتين جميلتين ، فحجَبَتِ العَرَبةُ عنِّي الأرنبَ ، ولكنَّ فرسي التي كانت مُندفعةً كالبَرْقِ حملتْني معها فألفيتُ نفسي وجهاً لوجهٍ أمام نافذة العربةِ المفتوحةِ ، حتى لم أجِدْ وقتاً لرفْع قُبَّعتي -كما تقْضي بذلك التَّقاليدُ- وكم أسفْتُ لذلك جدَّ الأسَف!

وحدثت لي مرة حادثةٌ لطيفةٌ مازِلتُ أذكرها إلى اليوم . وذلك أنَّ أحدَ رفاقِ صِباي ، وكنتُ لم أرَهُ منذ سنين طويلةٍ قابلني ذات يوم مصادفةً وهو عائدٌ إلى المدينة من سوقِ الحبوبِ التي كثيراً ما يستوردُها لأنه ورِثَ طاحونةً عن أبيه

ولا أظنُّكم تجهلونه فهو « وليَمْ مِلْهوبر » الرّجل البدينُ كنَّا إذ ذاكَ في ساعةِ العشيَّةِ فلما نزَلَ « مِلْهوبر » من عربتِهِ أخذ يترنَّحُ في مشيتِهِ حتى إذا فاجأتُهُ بالتَّحيَّة ولم يكنْ منتبهاً لوجودي بسببِ العتمةِ صاحَ صيحةَ فزعٍ وهو يقول «مَنْ الذي أرى أهو أنت البارونُ مونشهاوزن ، الذي ماتَ منذ زمنٍ بعيدٍ ؟ »

فأجبْتُه بحنقٍ « إنني كما تراني أمام عينيكَ حيٌّ أُرْزَقُ لم يُوارِني التُّرابُ بعْدُ عن العيون »

فأجابني بقحةٍ

- « نعم ، ومنذ سبعةَ عشرَ عاماً رأيتُكَ بعيْنيَّ هاتين جثَّةً هامدةً

على فراشِ الموتِ وقد كنتُ حاضراً عند مدفنِ «ديرو» ، وأذكرُ أن كلَّ طفْلٍ من الحاضرين سُمِحَ له لتلك المناسبة بقطْعةٍ من فطيرة الكرزِ مرشوشةً بالسُكَر -إن السُوسَ يا سيدي البارون لا بُدَّ وقد نخَرَتْ عظامَك منذ زمنٍ بعيدٍ .»

فأجبته : تمَهَّل يا وليَمُ لأؤكِّدَ لك أنني مازلتُ على قيدِ الحياةِ »

وما أن انتهيتُ حتى لطمتُهُ لطمةً قويةً ألقَتْ به على الأرض ؛ وبعد ذلك بأيَّام كنتُ أسيرُ بجوارِ الطاحونةِ فوجدتُهُ جالساً على مقْعدٍ يُسَلي نفسَهُ ، فابْتدرْتُهُ قائلاً

« أما زلتَ في شكٍّ من وجودي يا وليَم أم تُرَاك في حاجةٍ لأثبتَ لك ذلك مرةً أخرى »

فقام الطحَّانُ من مكانه وهو يرجوني ألا أفعلَ . نعم كان من واجبي أن أستخدمَ هذه الوسيلةَ القاسيةَ لأمْحو من أذْهانِ الكثيرين شُكوكَهم ، ولأقْنِعَهم بأني مازلتُ في عالم الأحياءِ

والآن عموا مساءً يا أصدقائي ويا رفاقي الأعزَّاءَ ؛ ألا فانعَمْوا مساءً

الليلة السادسة عشرة

للمرة الأولى يصلُ البارونُ إلى المجلس متأخراً ، وما أن استقرَّ به المُقامُ حتى توجَّه بكلامه إلى الجالسين ، وقال :إنني أستميحُكم عذراً أولاً لأنني وصلتُ متأخراً ، وثانيةً لأنني أجلسُ بينكم في ملابس الصَّيد . وفي كلتا الحالتين أعدُّ هذا الصَّدْريَ الذي ألبسه مسؤولاً! فأنتم ترَوْنَ أنه مصنوعٌ من الجِلْدِ ؛ وعلى وجه التَّحقيق مصنوعٌ من جلدِ « بيكاس » ذلك الكلْب الذي كثيراً ما قصَصْتُ طرفاً من حكاياته عليكم

فقد حدث في يومٍ من أيّام الآحادِ إذْ خرجنا للصَّيْد ، أن أُصيب هذا الحيوانُ المسكينُ بطَلْقةٍ طائشةٍ فبدلاً من أن يُصْرَعَ الأرنبُ الذي كان يتْبعه بيكاس صُرِعَ هو نفسُهُ لقد رأيتُ هذه الفاجعة بعينيَّ وأنا على مسافةِ ثلاثينَ خطوةً ، فلما وثبتُ مفزوعاً من مكاني رأيتُ هذا الحيوانَ الصَديقَ يتلوّى من شدّة الألم وينظر إليَّ بعينٍ مُتوجِّعةٍ ؛ ثمَ إنه رفع قدَمَه اليُسرى وكأنّه يودِّعُني ؛ ثم أخذ يهتزُّ ويرتجفُ حتى فارقَ الحياة

ليس بيكاس يا أصدقائي ويا رفاقي الأحبّاءَ إلا كلباً ، ولكنْ أيُّ كلبٍ هو! وإن كثيراً منكم ليعْرفه معرفةً شخصيّةً ، لهذا لا أريدُ أن أُطيلَ عليكم الكلامَ عنهُ ؛ نعم! ما هو إلا كلبٌ ولكنه عندي أكثرُ من هذا ، إذ

لم أجدْ له مثيلاً . وقد دفعني دافعُ الشفقةِ والولاءِ إلى أن أحنِّطَهُ ، ولكن لا ؛ إنّي أريدُ أن يكونَ أقــربَ إليّ من ذلك مكاناً ؛ لذلك صنعتُ من جلدهِ هذا الصّدْريَ حتى أحسَ بأنّني أحمِلُ له تذكاراً كلما خرجْتُ للصّيد

إنكم ترون كيف أن الدّموعَ تترقْرقُ في عيْنَيَ ؛ ولكن أتدرون ما حصَلَ ؟

عندما خرجْتُ للصّيد للمرة الأولى وأنا أرتدي هذا الصّدريَ مررْتُ بحقْلٍ من حقول البرسيم جثمتْ فيه جماعاتٍ من الطّيورِ البريّةِ ، فما أن وقعتْ عيناي عليها حتى بدأ قلبي يدُقُ دقّاً عنيفاً ، وكلما تقدّمْت خطوةً إلى الأمام زاد هذا الخفقانُ حتى كان عليَ أن أقفَ لكي أستجمَّ وحتى أسترجعَ أنفاسي المتقطِّعة . ثم إنني سِرْتُ بخُطُواتٍ وئيدةٍ ولكنَّ ضرباتِ قلبي اشتدَتْ وتوالتْ حتى عجزتُ عن المسير ، وعلى حين فجأة انفلتَ زرٌّ من أزرار هذا الصدريَ وانطلق طائراً إلى مسافة خمسة عشر قدماً . وفي تلك اللحظة هبَ سرْبٌ من الطُيور من مكانه ، فما كان منِّي إلا أن صوّبْتُ بندقيّتي وأطلقتُ النارَ فسقط منها خمسةٌ ، فجمعْتُها ووضعتُها في جراب الصيدِ وتابعْتُ سيري

وما أن ابتعدْتُ مسافة أربعين خطْوةً حتى عاد ذلك الخفقانُ وعادتِ الأزرارُ إلى الانفلات والطَّيران وكان يحدُثُ ذلك كلّما اقتربْتُ من صيدٍ جديدٍ ، لقد كنتُ أحسُّ بصدْري مأزوماً وبقلبي يكادُ يثبُ من مكانِهِ ، وكـان في كلِّ مـرّةٍ ينقطعُ زرٌّ من هذه الأزرارِ ، ولكنّني بعد ذلك كنتُ أصيبُ الهدَف بدقّةٍ ، فجمعتُ حولي كومةً من الإوَزِّ البريَ والقطا والأرانب

وأنتم ترونَ أن هذا الصّدْري مزيَّنٌ بصفّين من الأزرارِ . عُدّتُها أحد عشر زراً لم يبقَ منها إلا ثلاثة وسأعملُ على إصلاحها من جديدٍ في الأسبوعِ القادم ؛ فماذا تقولون في ولاء هذا الكلْب وإخلاصه حتى بعد موته . نعم إنني فتىً بالغٌ راشدٌ ، ولكنَّ ذكرى هذا الكلب الأمين

البارع ما فتئتْ تحزّ في قلبي من الحزن ؛ وهاأنذا أرفَعُ كأسي تمجيداً لذكراه

دعوني أقصّ عليكم مُغامرةً طريفةً! حدثت منذ بضعِ سنين أثناء زيارتي جزيرة صقلّيَة أن بركان « إتنا » قد ثارَ من جديد ، وأخذ يرمي باللّهَبِ وبالأحجارِ المُنْصهرَة حوله . وكنتُ إذْ ذاك في مدينة « قطانيا » وقد عقدتُ الصُحبةَ مع جماعة من السّائحين الإنجليز من رجالٍ ونساءٍ فخرجتُ معهم حتى وصلْنا إلى مكان يدعى « كازا انكليزيّ » أي البيت الانجليزيّ حيثُ قضيْنا الليلَ . وفي الصَّباحِ اقْترحَ علينا سائقْو الحمير أن نقوم برحْلةٍ حول البُركان قبل أن يهدأ ثورانُه ، ولكن بينما كانت الجماعةُ تنكُص على أعقابها كنتُ في طريقي مُنفرداً إلى رأسِ الجبل حتى وصلتُ إلى فوهة البُركان بعد ثلاثِ ساعاتٍ

أخذتُ أطوف حولَ الفُوهة ثلاث مرّاتٍ ، ولعلّكم تتصوّرون ضخامةَ هذه الفُوهةِ . لقد كان منظرُ الأوْديةِ والبحرِ من هذا الارتفاع ساحراً جذّاباً ، ولكنّ ذلك لم يشغل بالي ، إذ كنتُ أفكِّرُ فيما يطويه هذا البُركانُ في جَوْفِهِ ، ولم يطُلْ بي التّفكيرُ حتى عقدْتُ العَزْمَ على الوُثُوبِ في هذه الهُوّةِ المفْتوحةِ!

ما كِدْتُ أفعلُ ذلك حتى أسفْتُ لهذه المُجازفة ، إذ وجدتُ نفسي غارقاً في بحرٍ من العرق ، ونظرتُ حولي فإذا بالحُمَم تتناثرُ هنا وهناك حتى كاد يستحيلُ عليّ البقاءُ طويلاً ، وأخذتِ الصخورُ الذائبةُ والأحجارُ الملتَهبةُ تتراكمُ حولي شيئاً فشيئاً حتى كدْتُ أختفي في وسطها ولستُ أدري هل تكيّفْتُ فأصبحتُ قادراً على احتمال هذا الوهج وهذه النِّيران فغلبني النُّعاسُ أم أنّني فقدْتُ وعيي ؟ وبعدَ وقتٍ تنبَّهْتُ من غَفْوتي فوجدْتُ نفسي مُلْقىً على الأرض وحولي ضجيجٌ يكادُ يخترقُ الأذنَ

كنت كثيراً ما أسمعُ خليطاً من النَّقْرِ والخبْطِ والصِّياح والصُراخ فما أن قدْ أدرْت عينيّ حتى وجدتُ نفسي في صُحبةِ « فُلكان »

وجماعتهِ «السَّيْكلُوب» أولئك العمالقةِ ذوي العُيون المنْفَردَة التي تتوسَّطُ جباهَهُمْ



والآن قد عرفنا سرَّ «ڤلكان» ذلك البطل الإلهي الذي جعل من جوف بركان «إتنا» مصْنعاً للحدادةِ ، والذي أنكرَ حقيقةَ وجودهِ أكثرُ الناسِ من زمانٍ بعيدٍ . نعم إن الرّجُلَ الذي يضربُ في الأرض مسافراً تتهيَّأ له الفُرصة ليرى عجانبَ الدُّنيا ، لهذا السَّببِ فاضتْ نفسي بالأفكار حتى عمدْتُ إلى أن أقولَ شِعْراً بدأته هكذا «إنَ الرَّجلَ الذي يهْوى الأسفارَ يجوز له أن يرويَ القِصَصَ .» ولكنَّني لم أستمرَّ طويلاً في قَرْضِ الشّعْرِ

وإنكم لتتصوّرون يا أصدقائي مبلغ الدَّهشة التي غَمَرَتِ الأب ڤلكان العجوز وأتباعه العمالقةَ عندما اكتشفوا وجودي بينهم وبعد أن فحصتْني عُيونُهم حجل ڤلكان إلى صندوقه وأخرج دُهناً ورباطاً وأقبل عليَّ يضمِّدُ جراحي وحروقي ، ولا شكَّ في أن دواءَهُ كان ساحراً عجيباً لأنه ما أن مسحَ به جلدي المحترقَ حتى اختفتْ آلامي في الحال ، ولم يكن علاجه ساحراً فحسبُ بل إنه ضمَّد الحروق التي أصابت ملابسي نفسَها!

وجاء أحدُ صغارِ «السيكلوب» وأحضر قدْراً من ماء البحرِ الدافئ حتى استكمل نظافتي كما كنتُ موْضعَ رعايةِ السيِّدة «ڤينوس» زوجَة مضيفي المحترم وهي التي مضى عليها بضعةُ آلافٍ من السنين ومازالتْ محتفظةً بجمالها

وإن أسفتُ على شيءٍ فذلك أنَّني لم أسألْ عن سرّ مسألتين : الأولى من أيّ مصنعٍ من مصانعِ الأدويةِ استُحْضِرَ هذا الدَّواء العجيبُ الذي يشفي الحروقَ ، وإذا فرضنا أن ڤلكانَ نفسَهُ هو الذي يعدّ هذا الدواءَ فما هي عناصرُ تركيبِهِ ؟ والمسألةُ الثَّانيةُ تخصُّ السيدةَ ڤينوس وأنواعَ المساحيق التي تستخدمُها للاحتفاظِ بجمالها ؛ إذْ لي عمَّتان يعنيهما الجوابُ على هذا السؤالِ ولا شكَّ أنهما تحفظان لي هذا الجميلَ إذا أفضيتُ لهما بسرّ «ڤينوس»

نعم لو تسنَّى لي أن أعرفَ حقيقةَ هذين الدواءَيْن لكنتُ أصبْتُ من ورائهما ثروةً عريضةً!

ولي أنْ أقولَ بصفةٍ عامَّةٍ إنَّ الزوجين كانا رفيقين بي عطوفين عليَّ إلاَّ أنَّ «ڤينوس» كانت في بعض الأحايين تَحْدِجُني بنظرةٍ ساخرةٍ وتدعوني بالدودة الأرضية الحقيرة ؛ وكان هذا التحقيرُ يؤلمُني كثيراً أما زوجُها «ڤلكان» فقدْ طاف بي بين أرجاء مملكته السُّفلية وراح يُعرّفني بأقسامِها وأركانها حيث «السَّيْكلوب» يطرُقونَ الحديدَ ويصنعونَ منه صنوفَ المُنتجاتِ التي نستخدمها في حياتنا اليومية من المحاريثِ وأدواتِ الفِلاحةِ وعُددِ النجارةِ ومن الأسلاكِ والصَّفائح

الحديديةِ ومن الأسلحةِ والسيوفِ والدروعِ

وقد أبصرْتُ عشراتٍ من الطرقِ الضيِّقةِ التي تنْعطف شمالاً ويميناً والتي كانت تنتهي بعد خطواتٍ قليلةٍ إلى أبوابٍ مُوصدةٍ من الفولاذِ السَميكِ ، كُتِبَ عليها بحروفٍ مُضيئةٍ « إلى ڤيزُوف! » أو « إلى هِكْلا! » كما كُتِبَ على بعضِها أسماء براكين ميتة ثارت يوماً وخمَدَتْ ؛ فعلى بابٍ من هذه الأبوابِ كُتِبَ « استِرَامْبُولي » وتحت هذا نُقِشَ بثماني عشرةَ لغةً مختلفةً « ممنوع الدخول »

فسألتُ ڤلكان عن المكان الذي يوصِّلُ إليه هذا البابُ ؛ فأجابني في هدوء

« إن هذا البابَ يوصِّلُ إلى مصنع من المصانعِ الكُبرى التي تشتغِلُ بشتَّى المُنتجات الحديديةِ ، وليْس لكائنٍ مَنْ كانَ أن تقع عيْناهُ على ما فيه ، لهذا كان الدخولُ إليه مُحرَماً » ثم أخذ يتَمْتِمُ بكلام غير واضح تمامَ الوضوحِ ، بيْدَ أنني تسقَّطْتُ بعض كلماتٍ منها « المصائدُ الفولاذية والمدافعُ الأتوماتيكيةُ »



وفي ذلك المساءِ نفسِهِ سألتُ السيّدةَ ڤينوس عمّا إذا كانت قد زارتْ «اسْترانبُولي» ، فأجابتني نفياً ؛ لأنَّ الدخول إليه ممنوعٌ ، وكلُّ ما تعلَمُهُ أنَّ زوْجَها قد أعدَّ هذا البركان لأعماله الخاصّة فمِنْ بين ما يصْنَعه في هذا المكانِ صفائحُ الرّعْد للأب « زيُوس »

ثم إنَّ الحديثَ أخذ يتفرَّعُ بنا حتى عوّلْتُ على أن أنتهز الفرصةَ لأكشِفَ سرّ هذا المصنع لأتثبتَ مما رَوَتْهُ « ڤينوس » وقد واتتني الفرصةُ فعلاً في اليوم الثاني إذ نشبَ نزاعٌ بين العمّال فشُغِلَ الأبُ ڤلكان بفضِّه ، عند ذلك خرجتُ مُتلصّصاً وتسرَّبتُ إلى ذلك الباب الذي حُجر على الناس دخوله ففتحتُهُ بشيءٍ من الجهد إذ لم يكنْ مُوصداً . وما كدْتُ أفعلُ ذلك حتى أصمَّني صوتُ الرّعدِ القاصف ، وعندما تلفتُّ إلى جُدران هذا الدهليز وجدتُ أنه مُغطّى بلافتاتٍ مُضيئةٍ لتحذير الداخلين مكتوبة بثماني عشرةَ لغةً هذا نصُّها « هُنا مخازن المدافعِ الأتوماتيكيّة والمصائد الفولاذية »

وأخذت تعاودُني أفكارٌ مُتناقضةٌ واستولتْ عليَّ الحيرةُ ، ولم أدْرِ هلْ من العقلِ أن أتابعَ السيرَ في هذا الدهليز الذي يضيئهُ برقٌ خُلّب ؟ ولكنْ قبل أن أصل إلى رأيٍ حاسمٍ أحسَسْتُ بيدٍ تحمِلني بعنفٍ من ياقةِ معطفي وتنهالُ عليَّ ضرباً ولم تتوقّف حتى سمعتُ صوتَ الأب ڤلكان الذي عاد إذْ ذاك بعد فضّ المُشاجرة وهو ينادي « ساتْ سُوبَرْكَاي » ومعنى ذلك « نالَ كفايته » فخَلَّصْتُ نفسي من هذا الماردِ ، إلا أنه دفعني إلى هُوَّةٍ دامسةِ الظّلام وهو يتبعُني باللّعنات صائحاً « أيُّها الإنسانُ النّاكِرُ للجميلِ عِقاباً لك على نسْيانِكَ الفضلَ سأُرسِلُ بكَ مرّةً ثانيةً إلى عالمِ الأحْزان الذي جئتَ منه! »

وأخــذْتُ أهْوِي وأهْوي في ظلامٍ لا نهــايةَ لهُ ، وطفــقْتُ في هذا الهبوط ساعةً أو ساعتين من الزّمانِ ولا أشكّ في أنني فقدتُ شُعوري إبّانَ هذه الرِّحلة فلم أدْرِ كم قضيْتُ من الوقْت وكم كانتْ سُرْعتي في الهبوط وعلى حين فجأةٍ عُدْت إلى صوابي وأحسَسْتُ كأنّني أسبَحُ في

ماءٍ باردٍ ، ولَمّا فتحتُ عينيَّ وجدْتُني في بحرٍ غَمَرتْهُ الشَّمس فانْبطَحْتُ على سطحِ الماءِ الذي حمَلني دون أن أستخْدِمَ فنّاً من فُنون السِّباحة التي أجيدُها

ولكن إلى أين أنا ذاهبٌ ؟ وفي أيّ اتِّجاهٍ أسبَحُ ؟ إنَّ أحداً غيْري ليُسْقِطَ في يده إذا ما رأى نفسهُ وحيداً فريداً بين الماءِ والسَّماءِ ، وكان الماءُ فوقَ ذلك شديدَ البرودةِ بل كان مثلوجاً ثم إنَّني بعدَ ذلك تبيَّنْتُ في الأفق جبلاً من جبال الثَّلْج العائمةِ يبعُدُ عن مكاني نحواً من خمسةِ أميالٍ فاندفعْتُ إليه وأخذتُ أسبحُ حتى وصلْتُ إلى حافتِهِ فتعلَّقْتُ به وأخذتُ أتسلَّقُهُ بجُهْدٍ شديدٍ حتى وصلتُ إلى قمَتهِ ، فلما ألقيتُ بنظري إلى الجانب الآخر اكْتشفتُ قارباً يقفُ إلى جانبه خمسةٌ من الوطنيِّين بصُحْبتهم رجلٌ أبيضُ وهم منهمكون في بعض شؤون الصَّيْدِ

أخذتُ أصيح بأعلى صوتي لأستَرْعي انْتباهَ هؤلاءِ الصيادين ثم انطرحتُ على السفحِ المقابلِ لهم وانزلقتُ بسُرْعةِ الرِّيح حتى وجدْتُ نفسي على غير بعيدٍ منهم ، فأقبلوا عليَّ وحملوني إلى قاربِهِم فعرفت أنّ الرّجُلَ الأبيضَ هولَنْديٌّ ، وقد غرِقَتْ سفينتُهُ ولم ينْجُ منها أحدٌ سواهُ ، إذِ اصطدمَتْ بصَخْرةٍ في جزيرة مهجورةٍ من جَزائرِ المُحيط الهادي



وهكذا عرفت أنّني في البحر الجنوبي

ثم إنَّ الحقيقةَ تكَشَّفتْ لي إذ لم يكُنْ ذلك الدهليزُ الذي مرقتُ منهُ إلا أخدوداً أرضيّاً يشُقُّ الكرةَ الأرضيَّةَ . وكم أنا آسفٌ لأني لم أتبيَّنْ معالمَ الطَّريقِ الذي مررْتُ فيه

وإذا حدث أنَّ أحداً منكم وثَبَ في فُوهَةِ بُركانِ « إتْنا » واندفعَ في ذلك الأخدودِ الذي يمر بمركزِ الكرةِ الأرضيّةِ ، فإني أنصحُهُ أن يُدَقِّقَ النَّظَرَ حوالَيْه -إذا لم يُصَبْ بإغماءٍ أو بفقْدِ شعوره- لأنه سوف يستمْتِعُ بأرْوعِ المشاهِدِ التي لا مثيلَ لها ، والتي مع الأسف لم أستطِعْ أن أجْلُوَ غرائبَها بنفسي

والآن أنْعِموا مساءً أيها الأصدقاء!

الليلة السابعة عشرة

بينما كنا في طريقِ عودتنا إلى الجزيرة المجهولةِ في المحيط الجنوبيِّ والتي حدَّثتكم عنها ، قَصَّ عليَّ رفيقي الهولنْديّ شيئاً من غرائبِها . هذه الجزيرةُ يَدْعوها أهلُها «تيهاتْ لبياتي» ويحْكُمُها أميرٌ طيِّبُ القلبِ إلاَّ من عادةٍ غريبةٍ هي حُبُّهُ الشديدُ لأكل لحم الأجانبِ مشوياً بعد أن يُسمِّنهم شهراً كاملاً يعيشون خلالَهُ على فاكهةِ المحيط الجنوبي وعلى صنوفٍ من اللوز . وكان ذلك الهولنديُّ أحدَ ضحاياه فبقي في هذه الجزيرة لا يُطْعَمُ إلاّ الفاكهةَ واللّوزَ حتى إذا قربَ موعدُ شيِّهِ وأكْلِهِ حدثَ أن أمطرتِ السماءُ يوماً ، فتساقطَ على رأسِهِ نوعٌ من الفطائرِ الصَّغيرةِ التي أكل منها حتى شبعَ ، فلمَّا سَمِعَ الأميرُ بذلك غضِبَ غضباً شديداً وأمر أن يُسمَّن «يُوهَانْ ڤان ويزِل» من جديد شهراً كاملاً حتى يحينَ موعد افتراسه

فلمَّا سمعتُ ذلك منه قلتُ متهكِّماً

- «تمهَّل يا يوهان ، إذ لستُ بالذي يُصَدِّقُ كلامك ، فابْحثْ عن غيري قد يؤمن بأن السَّماءَ تُمْطِرُ فطيراً . فأنا -إذا أردتَ أن تعلمَ- البارونُ المشهور فون مونشهاوزن الذي طوّف حَوْلَ الأرض ؛ ومع ذلك لم أرَ أن السَّماءَ في أيِّ مكان تُمطرُ فطيراً»

فأجابني الهولنديُّ مؤكِّداً «ولكنَّنا في «تَيْهاتْ لِيْباتي» كثيراً ما رأينا السَّماءَ تُمْطُر فطيراً لا سيَّما في الصَّيفِ، فعلى رؤوس جبالِ هذه الجزيرة ينْبتُ نوعٌ من أشجارِ الخبز له ثمرٌ يُشبه في لونه وطعْمِهِ الفطائرَ المحشُوَّةَ باللَّحْمِ، فإذا هبَّتْ ريحٌ عاتيةٌ حملَتْ هذه الثِّمارَ ونثرتْها على أرضِ الوادي

وقد تحقَّقْتُ هذا بنفسْي فوجدتُ أن الهولنديَّ لم يعْدُ الواقعَ، وأنَّ علماءَ النَّبات مازالوا يجهلون هذا النَّوْعَ من شَجر الخبز الذي يُطلِقون عليه إلى اليومِ اسم «أرْتوكارْبسِ إجْنوتَسْ» وهو الاسمُ العامُّ لأشجار الخبز

وبينما كنَّا في هذا الحديثِ اقْترَبْنا من شاطئِ الجزيرةِ حيثُ أبصرْتُ الأميرَ جالساً وحوْلَهُ وُزراؤهُ، فما أن نزلنا إلى الشَّاطئ حتى قدَّمني الهولنديُّ إلى سُموِّه بعد أن منحني ما شاءَ من الألقاب؛ وأجاب الأمير على ذلك بلفتةٍ رقيقةٍ ثم إنَّه همسَ إلى وزيره الأوَّل وقال «فلْتبْدأْ تواً بعلْفه وتسمينِه» نعم يا له من استقبالٍ لطيفٍ!

وما أن خطوتُ بضعةَ أقدامٍ حتى حدث أمرٌ عجيبٌ؛ فما كان يدور بخلدِي أن شُهرتي التي طبَّقتْ آفاق العالَم المُتمدِّن قد وصلَتْ إلى هذه الجزيرة التي مازالتْ غير معروفة عند الجغرافيِّين؛ وذلك أنني بينما كنتُ في طريقي إلى قصر الأميرِ -الذي هو في الحقيقة كوخٌ فطريٌّ- إذا بالأشجار التي تُحيطُ به تحني رؤوسها، وكأنَّها تقولُ: «أهلاً بكَ يا صاحبَ السَّعادةِ فون مونشهاوْزِن!»

لقد كان لذلك أبلغُ الأثر عند الأمير فهَمَس في أذن وزيرِه قائلاً «لا تتعجَّل بتسمين مونشهاوزن» ولَمَّا فسَّرَ لي الهولَنديُّ معنى هذا الهمس سُرِّيَ عني

وبعد أن سِرْنا مائة خطوةٍ منَ قصر الأميرِ مرَرْنا بصفَّيْن من الأشجارِ عدَدْتها اثنتا عشرةَ شجرةً محمَّلةً بنَوْع من الفاكهة مُستديرٍ في حجم رأس الطِّفل، ومن أغصانِ الشَّجراتِ الثَّلاث الكُبرى تَدَلَّى ثلاثةُ رجالٍ

مُعَلَّقين من أعقابِهِمْ ، وكان مَشهدهم عجيباً . ولمَّا سألتُ عن حقيقتِهِمْ وسبَب عقابِهم هذا العقابَ الصَّارِمَ ، أخبرني « يُوهان ڤَان ويزل » بأن هؤلاء الرجالَ كانوا قد رَحَلوا من الجزيرة للسِّياحة والنزهة فلمَّا عادوا إلى جزيرتهم راحوا يصفُون من الأماكن والبلاد ما لم ترَ عينٌ ، ويقصُّون من الرِّوايات ما لم يُصَدِّقه أحدٌ ، لهذا نزل بهم هذا الجزاء . ورغم أن هذا العِقاب صارمٌ شديدٌ ، ولكنَّ أولئك السَّائحين الذين لا يلتزمون جانبَ الحقيقة في رواياتهم يستحِقُّون مثلَه وزيادةً . لهذا كم أتمنَّى أن يُعاقَب الكذابون بشنقهم حتى تسودَّ جُلودُهم!

والحقُّ يُقال إنَّني لم أمكثْ طويلاً في « تيْهات لِبياتي » لأتحقَّقَ صِحَّةَ رواياتهم ، وفضلاً عن ذلك فإنَّ فكرةَ الحياةَ على الفاكهةِ والجوْز وإعْدادِ نفسي لوليمةِ شواءٍ فاخرةٍ ليس بالأمر الذي يستهوي النَّفسَ ، لذلك ما أن واتَتْني الفُرصةُ في مساء ذلك اليومِ نفسِه حتى خَلَوْتُ « بيوهان ڤَان ويزل » وأفْصَحْتُ له عن عزمي على الهَرب من الجزيرة في أقربِ وقتٍ فطفَحَ وجهُهُ غبطةً وسروراً ؛ ولكن سرعان ما أفضى لي بخبيئة أفكارِهِ فذكر لي والأسى يملأ نفسَه أنَّه لا يعرفُ أين مكانُ هذه الجزيرةِ من المحيط فهي لم تُكْتَشَفْ بَعْدُ ، لهذا ليس لها مكانٌ على الخرائط الجغرافية وعلى ذلك فمن المُستحيلِ أن نعرفَ الاتِّجاهَ الذي يُوصلُنا إلى أوربا إذا حانتْ لنا فُرْصةُ الهرب

أمَّا أنا فلمْ أحاول أن أعترض عليه ، إذْ أنَّهُ سيَّان عندي أن نُغرِّبَ أو نُشرِّقَ ما دُمنا لا نَعرفُ إلى أين نذهبُ ، وكلُّ ما نرجوهُ أن يُواتينا الحظُّ فنقَعَ على أهلِ بلدٍ من المُتمدِّنين يدُلُّوننا على الطَّريقِ الذي نسلُكُهُ ثم إنَّني وجدْتُ من الضَّروري أن نبْني قارباً نَنْحتُهُ من جذوع الأشجارِ ؛ وهذا يتطلَّبُ أن نَعرفَ صُنوفَ الأخشابِ التي تنبُتُ في الجزيرة والتي تصلُحُ لهذه المهمَّة ؛ ولم يكن الهولَنْديُّ صاحب معْرفة بفنِّ النَجارةِ وكلُّ ما دلَّني عليه أن الأشجارَ التي شُنِقَ عليها الكذَّابون الثلاثةُ ذاتُ ثمرٍ أشبه شيءٍ باليقْطين الأجوف الذي إذا ما جفَّفَتْهُ الشَّمسُ أصبَحَ كالبالون رقَّةً وخفَّةً فتُطيرُهُ الرِّياحُ في الفضاء

ثم طرأت عليَ فكرةٌ قابلها الهولنديُ باغتباطٍ وفرحٍ إذ اتَّفقنا على أن ننتظِرَ جَفاف هذه الثمار بعد أيَّامٍ ، فنصنعَ منها عِقْداً نطيرُ به . وفي أثناء ذلك أعْددْنا قدراً كافياً من الطَّعام لنحمِلَهُ سِرَّاً في جيوبنا ، حتى إذا جاء الموعِدُ ربطْتُ من هذه اليقاطين الجافَّة نحو ثمانٍ أو عشرٍ حَوْلَ حزامي ؛ وصَنَع « يوهان » مثل ما صنعتُ ؛ فلمَّا هبَّتِ الريحُ الدافئةُ ارتفعنا في الهواءِ ودفعتنا إلى البحر ، ولكنَّنا سرعانَ ما افترقْنا . ولَمَّا تلفَّتُّ خلْفي ألْفَيْتُ « يوهان » وقد أخذ يهبِطُ شيئاً فشيئاً إلى سطْحِ الماء حيثُ التقَطَتْهُ سفينةٌ عابرةٌ . وقد علمْتُ بعد ذلك أنه عادَ إلى بلدِهِ وعُيِّنَ أميناً لِمَتْحَفٍ من متاحف التَّاريخ الطَّبيعيِّ في مدينةِ « أمستردام » أو « لِيدن »

أمَّا أنا وكانت رِحْلتي أشدَّ وأشقَّ من ذلك فلمْ يقِرَّ لي رأيٌ على الهبوط في عرضِ البَحْرِ أو التَّعلُّقِ في الفضاءِ تتقاذَفُني الأهواءُ ، إذ أن إعْصاراً هَبَّ بعد ذلك فحملني على مَتْنِهِ ثلاثة أيَّام وثلاثَ ليالٍ وهو يدورُ بي بحركةٍ لَوْلبيَّةٍ ، فكان من حُسْن حظِّي أن الطَّعامَ الذي خزَنْتُهُ في جيوبي أنقذني من الموت ، ولكنْ انتهى بي الأمرُ إلى أن فَقَدْت وعْيي فوَجَدْتُ نفسي بعد ذلك مطروحاً على سطْحِ الماء فأخَذْت أسْبَحُ حتى كلَّتْ ذراعاي ، وبعد أن قطَعْتُ نحواً من سبعةَ عشرَ ميلاً بحرياً أنقَذَتْني إحدى السُّفُنِ

كانت هذه السُّفينةُ فرقاطةً تركيةً . وفي الليلة الأولى دعاني القبطانُ إلى غرفته التي اجتمع فيها كثيرٌ من الضُّبَّاط والبَحَّارَةِ وسألني عن أمْري فقصَصْت عليه ما شاهدْت في جزيرة « تِيها لِيبْيَاتي » ورَوَيْتُ خبر الإعصار الذي حَمَلَني فأحْسَسْتُ بأن السَّامعين بدؤوا يشكُّون في أمْري مع أنَ ما رويتُه كان خالياً من التَّزْويق ولم أزِدْ أكثر مِمَّا رويتُه لكم ؛ فلما انتهيتُ تلفَّتَ القبطانُ إلى جارِهِ وهمسَ له « أحْلفُ لك باسمِ مُحمَّدٍ أنه لا وجود لمثل هذه العاصفة »

ولكن ما أسرعَ أن حلَّ العقابُ! إذ لم نكدْ نتسرَّب إلى قَمراتنا

حتى هبَّت ريحٌ جنوبيةٌ وأخذتِ السفينةُ تتأرجحُ حتى استحالَ علينا النَّوْمُ ، ثم أخذتْ تتقاذفها الأمواجُ يمنةً ويسرةً وكأنّها سِكّيرٌ يترنّحُ من فِعْلِ الشراب . وكانت الرِّياحُ الغربيةُ والشرقيةُ تتناوَبُ الهبوب كلّ ثلاثِ دقائق بالضبطِ حتى أصبحتِ الحياةُ على السّفينةِ جحيماً لا يُطاقُ

وعندما انبلَجَ الصباحُ هبَّت ريحٌ شماليةٌ عاتيةٌ وكان من شدّتِها أن دكتْ الساريةَ الكبرى فسقطَتْ على بيت البُصلة فحطَمَتْه تحطيماً فأصبحتْ السّفينةُ وقد تحطّمتْ بُصْلتُها تضربُ في هذه البحارِ الواسعةِ دون هُدىً ، ومثلُها في ذلك مَثلُ رجُلٍ غريبٍ كُمّتْ عيناهُ يقفُ بين مُفترِق الطُرق دون دليلٍ يقودُه وهو لا يعرفُ السّبيلَ إلى الهدفِ الذي يسعى إليه ؛ ثم غمرت السماءَ حلكةٌ عميقةٌ فكنّا نشقُّ عُبابَ الماء وكأنّ سفينتنا حبيسةٌ في جُوالَقٍ مقفولٍ

ومضيْنا على هذا النَّحو شهراً كاملاً ؛ أمّا في النهار فكان الضَّوءُ كوقْتِ العشيَّةِ ، أمّا في الليل فكان الظلامُ مُطبقاً ، أما الشمسُ والقمرُ والنجومُ فلم نرَ لها وجْهاً خلال ثلاثةَ عشرَ أسبوعاً ؛ وأخذتِ الريحُ تعبثُ بساريات السفينةِ واحدةً إثْرَ واحدةٍ ، فكانتْ تحملُها على رأسِ الأمواجِ فتبدو وكأنّها على قمّةِ جبل ثم تهبطُ بها حتى تكاد تغمرُها وإنّه من النّادر أن تنْجو من أهوالِ هذا البحرِ فرقاطةٌ قد دُكّتْ سواريها وتحطَّمَتْ بُصلتُها ورُكِّبَ على جنباتها سبعونَ مِدفعاً وحملَتْ على ظهرها أربعمائةِ رجلٍ أو خمسمائة!

وفي النّهاية هدأتِ العاصفةُ ولكنَ البحرَ ما فتئَ هائجاً بعض الشيء فحَمَلَ حطامَ السفينة على متنه وليس فينا من يعرفُ إلى أين المصيرُ وأخذتِ المؤونة في النفادِ حتى إذا أتينا على آخرها أشرقتِ الشمسُ للمرّة الأولى وهبّت ريح دافئةٌ رقيقةٌ حملت معها رائحةً زكيةً عَبِقةً تفتَّحت لها الأنوف فتذكَّرْنا رائحةَ البرتقالِ ، وعلى حين فجأةٍ لمعت في خاطري ذكْرى قديمةٌ فقلتُ لنفسي إن هذه الرّائحةَ لتعودُ بي إلى أيّام شِواءِ السّفافيدِ وسيجار الهافانا! فما أن انتهيتُ حتى همسَت مئاتٌ من

الأصوات مُرَدِّدَةً! نِعْمَ الشواءُ والسيجارُ ، وهكذا قضينا أسبوعاً كاملاً نعيشُ على هذه الرائحة المغذِّية المشبعة

فلما كان اليومُ الثامنُ اقتربْنا من الشَّاطئِ وكم كانت دهشتنا عندما رأينا أننا نهبطُ مدينة « هافانا » نفْسَها في الطرف الشماليِّ لجزيرة « كوبا » نعم لقد صدق حَدْسي إذ كانت تلك الرائحة من عبق السيجارِ فِعْلاً

وفي اليوم الثاني نزلْتُ إلى الشاطئِ وجلسْتُ أُدخِّنُ هذا السِّيجارَ الفاخرَ بين جماعةٍ من زُرّاعِ التَّبغِ أقُصُّ عليهم طرفاً من مُغامراتي وهم بين مُصدِّقٍ ومكذِّبٍ ، فمنهم مَنْ كان يضحكُ ، ومنهم من كان يتساءَلُ ، ومنهم مَنْ كان يُمَشِّطُ شعرهُ بأصابعه وقد تملَّكَتْهُ الدهشةُ واستحوذتْ عليه الغَرابة ولكنْ لم يطل مقامي في هذه المدينة إذْ وجدتُ في الليلة نفسِها سفينةً أقلعَتْ بها إلى أوربا . والآن أترككم يا أصدقائي ويا رفاقي الأعزّاءَ وأشكركم لجميلِ إصغائكم لحديثي ، وأرْجو لكم ليلةً سعيدةً

الليلة الثامنة عشرة

طلب مني صديقنا مراقبُ الغاباتِ أن أفضي إليه بحقيقةِ تلك المهمةِ التي قمت بها منذُ بضع سنين في مدينة «ويزِل» ، وفي هذه الليلة سأروي لكم خبرها

أريدُ أن أنوّهَ لكم بادئ ذي بدءٍ بأنّ هذه القصة طويلةٌ لا يتّسعُ لروايتها المكان والزمان ، كما أريدُ أن أنبّه أذهانكم إلى أنّ العالَمَ ما فتئَ إلى اليوم يجهلُ هذا السِّرَّ ، لهذا أستميحكم عذراً إذا طلبْتُ منكم أن تمتنعوا عن إفشاء السرِّ لأحدٍ من الناسِ

جرت حوادثُ هذه الحكاية منذ بضع سنين ، ولا شكّ في أنّ الحكومة تسوؤها إشاعةُ هذا الخبرَ خوفاً من أن تتولاّهُ الصّحافةُ بالتّهويل والمغالاةِ . وكلُّ ما هنالِكَ أنّ القيادةَ العسكريَّة في «ويزل» كلّفتْني بمهمّةٍ لم أعْرف حقيقتها تماماً عندما تسلّمتُ رسالة القيادة المهمَّةِ التي تذكرُ فيها أنّ مدافع الحصْنِ هناك قد فتكتْ بها دودةُ الحديد

وإنه ليبدو على أعينكم يا أصدقائي ما يدل على أنكم في حيرةٍ ودهشةٍ ممّا أقولُ : أتسألونني ما هي دودةُ الحديد هذه ؟ فأقرِّر لكم أنني لم أسمعْ عنها قبل ذلك اليوم وإنني ما زِلت أعلم عنها القليل!

فلما وصلتُ إلى «ويزل» وجدْتُ قائدَ الحصنِ في انتظاري وفي رفقتِهِ ضابطُ المدفعيَّةِ وغيرُهُ من الرجال العسكريِّين ، وكانت وجوهُهُم تُنْبئ بما هُمْ فيه من حيرةٍ وتفكيرٍ شديدٍ ؛ ومن ثم انطلقنا إلى القلعةِ حيث وجدْنا طبيبَ المعسكرِ في انتظارِنا . فلمَّا سألْتُ عن الظُروف وعن الأسباب التي أدَّتْ إلى هذه الفاجعةِ لم يُجب القائدُ إلاَّ بهزِّ أكْتافه ، ثم همس الضابطُ في أذني قائلاً «لا ضرورةَ للكلام وإعادةِ الحديثِ فسوفَ ترى بعَيْنَيك» . فلمَّا وصلْنا إلى الحصْنِ تخلَّفَ القائد وسرْنا في سرْدابٍ مُظلم -وكنَّا خمسةً- يحمِلُ كل واحد منا مصباحاً حتى إذا هَبَطْنا إلى فناءٍ سفليٍّ وجدْنا نحواً من سبعين مِدْفعاً مصفوفةً الواحد منها إلى جوار الآخرِ

ففتَحَ ضابطُ المدفعيَّةِ فمهُ ، وقال بصوت أجش «ها هي ذي ضحايا دودة الحديدِ» . ولما اقتربنا من هذه الأجسام الحديديةِ شاهدْتُ في ضوءِ المصباحِ أنَّ دمْعةً تترقْرقُ في عينٍ كلِّ واحدٍ منهم

فسألتُ الضابطَ عن عددِ هذه المدافعِ المصابةِ ، فذكر أنها كانتْ إلى الأمسِ ثلاثة وستِّين وزادتْ في يومنا هذا ثمانيةً أخرى فأصْبحَ عددُ ما أصيبَ من المدافعِ إلى اليومِ واحداً وسبعين مدفعاً . فانْحنَيْتُ قليلاً لأبصرَ مبلغَ فتْكِ الدودةِ بالحديدِ ، وإني أؤكِّدُ لكم يا سادتي أنَّ هزَّةً عنيفةً شملتْني فأحْسسْت الدمِ يتدفَّقُ في عروقي ؛ أنتم تسألونني ماذا رأيتُ ؟

لقد رأيتُ هذه الأجسامَ الحديديةَ وقد نخرتْها الدِّيدانُ ومن بينها ما كانت إصابتُهُ بالغةً فانتشرتْ الثُقوبُ في أكثر أجزائِهِ حتى أصبَحَ كالتّفاحةِ المنقورةِ ، وبعضها قد فتكت به الديدانُ فتكاً ذريعاً حتى أصبح كالعدم ، فكانتْ الثُقوبُ يجاورُ بعضُها بعضاً فأصبح منظرُ بعض هذه المدافع كإسْفنْجةٍ من حديدٍ وإذا نقَرَ أحدٌ عليها بمطرقةٍ فإنها كانت تتساقَطُ تراباً أسوَد

لقدْ أخرسني هذا المنظرُ في بادئ الأمر ولما سألتُ عن تاريخِ هذه

الفاجعةِ علمتُ أن أوّلَ ظهورِ هذه الديدانِ جرى منذُ أربعة أسابيعَ وتوالى بعد ذلك فتْكُ الديدانِ وانتشر يوماً بعد يوم ، ومع ذلك فلم يتمكّن أحدٌ من أن يرى الدودةَ مصدرَ هذه الكوارثِ . فأخذتُ أفكّرُ وأقلّبُ فيما أنا مقدمٌ عليه وفي العلاج الذي يصلُحُ للقضاء على هذه الحشرة

ومن العجيبِ أن أحداً لم يُفكّرْ حتى ذلك الحين في القضاء على مصدرِ هذه النّكبةِ! فلعلَّ المصيبةَ قد أعْجزت أهل «ويزل» عن التّفكير أو عن القيام بأية محاولةٍ للقضاءِ على دودةِ الحديدِ هذه وكان أوّلُ ما فكّرتُ فيه أن أقضيَ على العدْوى بالنّارِ . وعندما عرضتُ رأيي على قائدِ الحاميةِ استحسن الفكرةَ وأمر ببناءِ فرن كأفرانِ صهْرِ الحديدِ فتمَ إعدادُ ذلك على وجْهِ من السُرْعة خلالَ ثلاثةِ أيّامٍ وفي أثناءِ ذلك انتقلتِ العدوى إلى أحدَ عشرَ مدفعاً وبذلك أصبحتْ جملةُ الإصابات اثنتين وثمانين

فلما تأجّجَتْ نيرانُ الفُرن وضعْنا فيها على سبيل التَّجربة عشرين أنبوبةً حديديّةً من بين التي نَخَرتها الديدانُ واثنَتَيْ عشرة أخرى سليمةً ، ورأيتُ أن نُبقي هذه جميعاً يومين كاملين وبعدها تُنقلُ إلى حوضٍ كبيرٍ خُلطَ ماؤُه بغازِ الكلور وهناك تبقى مغمورةً ثمانية أيّامَ أخرى

وفي خلال ذلك كله كنتُ موضع احترام رجال الحاميَة وإكبارِهِمْ فكانوا ينظرون إليَّ نظرَتهم إلى الصديق المُنقِذ وراحوا يدعونني بطبيب المدافعِ ؛ فلم ينقضِ يومٌ دون أن يجري عرضٌ عسكريٌ في القلعة ، ولا يمُرُّ مساءٌ دون وليمةٍ فاخرةٍ ابتهاجاً بي ، وبينما كنّا على هذه الحال كانت العَدْوى تزدادُ انتشاراً فأصيبَ إبّانَ ذلك واحدٌ وخمسون مدفعاً آخر فأضحتْ جملةُ الضّحايا مائةً وثلاثةً وثلاثين مدفعاً ، ومع ذلك فكانت الآمالُ مَعْقودةً بنجاحِ العلاج الذي بدأتُهُ

فلما كان اليومُ التاسعُ أفرغنا الحوْضَ من الماء فوَجَدْنا أن الأنابيب الحديديّةَ قد غطّتْها طبقةٌ سميكةٌ من الصّدأ ولكن عندما اقتربتُ منها

أصابني الذعرُ ، إذْ وجدت أن الثقوب قد شاعت فيها أكثر من ذي قبلُ ، وأصيبتْ بالعدوى كذلك المدافعُ السليمةُ فبلغتْ جملةُ الضَّحايا حتى ذلك اليوم مائةً وخمسةً وأربعين مدفعاً

أراكم تبتسمون سُخريةً يا أصدقائي! ولكن ليس في هذه القصَّةِ ما يدعو إلى الابتسام! لقد قضيتُ تلك الليلةَ أرِقاً أقلِّبُ الرأيَ على كلِّ وجه ، ولكن لكلِّ شيءٍ نهايةٌ ، وكذلك الحالُ في تلك الليلةِ فما أن أقبلَ الصَّباحُ ، وما أن أرسلت الشمسُ شعاعها الأول حتى انتفضتُ من مرقدي وأنا أرَدِّدُ –وكأنني أكلِّمُ عَدُوّي المجهولَ لقد غالَبْتِ أيَّتُها الدودةُ النارَ والماءَ ، فلم يبقَ إلا أن أحارِبَكِ بسُمٍّ أرسِلُهُ إلى جوفِكِ .! »

وما أسرع أن ارْتديتُ ملابسي العسكريةَ وهَرْوَلتُ إلى غرفةِ القائدِ الذي كان في تلك السَّاعةِ يُصارع الكابوسَ ، فأيقظْتُه وجلسْتُ إلى جانبه أشرحُ له فكرتي الجديدةَ التي قابلَها باعتبارٍ كبيرٍ ؛ فأمر بنفخ البوق فتجمَّع الرجالُ على ندائه فقسَّمهم جماعتين أرسلَ نصفَهم لجمع « عُشّ الغراب » وهو نباتٌ بريٌّ سامٌّ ، أما النصفُ الآخرُ من الجنود فراحوا يساعدون صانعَ النَّحاسِ في تجهيز قدْرٍ نحاسيَّةٍ ضخمةٍ في حجم فتحةِ الفُرن

فلما أقبل المساءُ عادَ الرِّجالُ يحملونَ السِّلال المليئةَ بـ« عشّ الغراب » وكانت النَّار متأجِّجةً في القدر النحاسيَّة التي مُلئَ نصفها بالزيتِ ، فلما غلى الزيتُ ألقينا فيه بمئات الأرطال من عُشّ الغراب وتركنا النَّار إلى الصَّباحِ لتُسَوِّيَ هذه العجينةَ السَّامَّةَ . ولا أريدُ أن أطيلَ عليكم الوصفَ والكلامَ ، إذ كلُّ ما هنالك أننا وضعْنا الزيْتَ في حوضٍ كبيرٍ ومن ثَمَ ألقينا فيه بمائةٍ وخمسٍ وأربعين أنبوبةً حديديَّةً

أمّا النَّوم فلم يطرقْ عينيَّ تلك الليلةَ أبداً فلمّا انْبلجَ الصباحُ أسرعتُ إلى ذلك الحوض فألفيتُ مئاتٍ من الدِّيدان الصَّغيرةِ سابحةً على وجه الزَّيتِ الذي بدا كالحساءِ السميكِ . وكانت هذه الديدانُ كالخُيوطِ الرفيعةِ في قَدْرِ البوصَةِ خضراءَ اللَّونِ لامعةً تميلُ حيناً إلى الصَفرةِ وحيناً

إلى الزرقةِ ، فانحنيتُ ورفعتُ اثنتينْ منها فلم يُداخِلْني الشَكُّ في أنَّهما بقيَّة من بقايا تلك الحشرةِ التي فتك بها السُمّ ، فلما استقْبَلَتا الهواءَ تفتّتا . ثم إن عيْني انحرفَتْ يَسرةً فوجدتُ عند حافة الحوضِ دودتين تنبُضُ فيهما الحياةُ وكان طولُ الواحدةِ منهما رُبع قدم وقد انتصبتا ومالت الواحدةُ منهما على الأخرى وكأنَها تُعاني آلاماً مُبَرّحة ، وبين الفينة والفينة كانت تبرُزُ منهما قرونٌ تُشبِهُ الخيوط ثم سرعان ما تختفي

وما أن زالتْ دهشتي حتى اقتربْتُ وفتحتُ كفّي لأقبِض عليهما فحدثَ في تلك اللحظة أن أقبل جماعةٌ من رجال الحاميةِ وهم يتحدثون بصوتٍ مُزْعج ، فما كان من الدُودتين إلا أن وثبَتا في الهواء وألقتا بنفسَيْهما في حوض الزَّيْتِ

حدث كلُّ هذا أمام عينيَّ ولم أجدْ فرصةً للحيلولةِ دون ذلك ثم ذكرتُ للقائدِ ما شاهدتُ فأمَرَ بدَوْره جماعةً من رجاله وأفْرَغوا هذا المزيجَ السَّامَّ ، فلما نضُبَ الحوْضُ لم نجد بقايا لهذه الحشرات ، فقد ماتت وهلكَتْ وتحلَّلتْ أجسادُها . عند ذلك رُفعت الأسطوانة الحديديةُ من مكانها وجُفِّفَتْ وعُرِضَت للاختبار ، ووُجِدَ بعدَ ذلك أن العدوَّ قدْ باء بالهزيمة وأن الإصاباتِ قد وقفتْ عند هذا الحدِّ ، ولكن لم يُشاهَدْ أثرٌ واحدٌ لديدان الحديد ؛ أما هذا الدواءُ الذي ابتكرتُهُ فقد ثَبَت أنه علاجٌ ناجعٌ قاطعٌ لأمراض الحديد ، وأنه يقضي على ديدان الحديد قضاءً مُبْرَماً

وقد منحَتْني الدولةُ نصفَ مليونٍ من التّالراتِ[1] ، ولكنني رفضْتُ المنحةَ كما منحتْني وساماً سامِياً فاعتذرتُ ، إذْ إنَّني لا أريدُ أن أستعيدَ الكلام عن الدّيدان الحديديَّةِ وعن وسائلِ القضاءِ عليها ، وكلُّ ما يكن أن أقولَهُ هو أنكم تلاحظون أن أسطواناتِ المدافع التي تصْنعُ منذ ذلك

(١) التالر عملة ألمانية قديمة قيمتها نحو خمسة وعشرين قرشاً

التـاريخ هي من مزيج نحـاسيّ وهو المعدن الذي تُصْنع منه الأجْـراسُ ؛ وذلك خوفاً من أن تخترمها الدودة الحديدية!



ويحسُنُ بي أن أُذكِّـرَكم بأن تلكَ المدافعَ التي فتكَتْ بهـا الدُودة وأصبحتْ كالإسْفَنْجَةِ قد طُرِحتْ جانباً وكان رجال المدفعيَّةِ يقطّعون منها قطعاً لصقْلِ المدافع وتلميعها . وقد أرْسَلَ في طلبي جماعةٌ من العُلماءِ ، ولكنَّ أحداً منهم لم يجد أثراً في كتب التاريخ الطَّبيعيِّ لدودةِ الحديدِ ، ولولا أنَّني شاهدْتها بعيْنَيْ رأسي ورأيتها بنفسي لشكَكْتُ بدَوْري في الأمر نعم إن العلماءَ لا يعرفونَ كلَّ شيءٍ!

الليلة التاسعة عشرة

لعلَّ الشكّ بدأ يساوركم في مدى معرفة العلماءِ بالأسرار الطَّبيعية! وإنّني لأرْوي لكم هذه الليلةَ شيئاً عن البردِ القارسِ معتمداً في ذلك على مُشاهداتٍ شخصية يجهلُ أمرها العلماءُ أنفسُهُمْ

رَوَى لي صديقٌ لا أشكُّ في صحّةِ روايته أنّه كان في رحلةٍ إلى البحرِ المتجمِّدِ الشّمالي ، وكان البردُ شديداً قارساً حتَّى أنّ الشموعَ إذا وُضِعت في مكانٍ على ظهرِ السفينةِ فما أسرعَ أن تنطفئَ مع أنَّ الهواءَ ساكنٌ لا يتحرّك بل يصبح من المستحيل أن توقد ثانيةً ، وذلك لأنَّ الشّمع أو الدهن الذي تُغرسُ فيه الفتيلةُ سُرعان ما يتجمَّد! والواقع أنّني لم أشاهدْ هذه الظاهرةَ بنفسي وكنتُ من المحتمل أن أشكَّ في صحة روايتها لولا أنّني شاهدتُ أثناءَ مقامي في روسيا حوادثَ مشابهةً

إنه من السَّهل الميسور أن يهزَّ الإنسان رأسَه ، ولا يصدِّقُ ما يقال له لأن ما يقالُ قد يبدو مستحيلاً ، ولكنَّ المثل اللاتيني يقول «إن تجاربَ الإنسان لا حدَّ لها»

حدث ذات مرّة أن كُنتُ في رحلةٍ لصيْدِ الدّببة وقد كان البرد شديداً للغايةِ حتى أنّني كنتُ كلّما أطلقتُ بندقيّتي كانت الرّصاصةُ

تتفتَّتُ إرَباً وهذا ما حدث بالفعل عندما أصبتُ دُبَّةً وقضيْتُ عليها ولكني ما كدْتُ أفعلُ ذلك وقبلَ أن أبحث في جيوبي عن رصاصةٍ أخرى ، حتى سمعتُ هَمْهَمَةً غريبةً قريباً مني ، وما كدْتُ أدورُ برأسي حتى رأيتُ ذَكَرَ تلك الدُبة المقتولةِ يتقدَّمُ نحوي وقد فتح ذراعيْهِ وخُرطومَه الواسع واستعدَّ للوثوبِ عليَّ

ولما لم تكن لي رغبةٌ لأحتضن هذا الدبَّ الذي صيَّرتُه أرملاً بقتلِ زوجته ولما كانت بندقيَّتي خاليةً في تلك اللحظةِ من الرصاص ، فأصبحتْ عديمةَ النّفع ، لذلك كلِّه لم أجدْ لنفسي مَخرجاً إلا أن أتسلَّقَ شجرةً قريبةً ، حتى أجد مهلةً لأشحن بندقيتي من جديد وما هي إلا لحظة حتى كنتُ فوق شجرةٍ قريبةٍ وبينما كنتُ أشْحَنُ البندقيَّةَ بالبارودِ على عجلٍ إذْ برفَّاصِ البندقية يثبُ من يدي التي أصبحتْ كالمشلولةِ من شدَّةِ البردِ ويسقُط على الأرض تحت الشجرةِ عند ذلك عمَّني الذُعرُ فجلسْتُ على بعض أغصانِ الشَجرةِ حائراً قلقاً خَوْفاً من أن يجمع الدُبُ رأيَهُ ويصعدَ إلى مكاني

ولكنَّ الحظَّ كان حليفي إذْ إن الدبَّ بدلاً من أن يتَّبعني راح إلى أنثاهُ الملقاة على الأرضِ وكأنَّه يحاولُ أن يعرفَ السَببَ الذي من أجله بدتْ ساكنةً عديمةَ الحركة وقد تدفَّقَ منها الدم على وجهِ الثَلج الأبيض فاقترَبَ منها وأخذ يشمُّها مرّاتٍ ثم يلمسُها بكفِّهِ وهو يموءُ مواءً محزناً ، ثم طفِق يدور حولها وكأنه يحاولُ أن يرفعَها من مكانها

وقد استغرق ذلك بعض الوقتِ ، وهذا ما كنتُ في حاجةٍ إليه حتى أتمكن بوسيلةٍ من الوسائل أن أُنقِذَ رفاص البندقيَّة المُلْقى على الثَلج ، أمَّا أن أحاولَ ذلك بنفسي فكان بطبيعة الحال أمراً مستحيلاً . عند ذلك مدَّ إليَّ البردُ الشديدُ يدَ المساعدةِ

أخرجْتُ من جيبي قطعةً من لُبابِ الخبز الأبيض الذي كنتُ أحمله لفطوري ومضغتُها قليلاً ثمَّ عقدْتُها في طرفِ كرباج الصَّيْدِ وأدْليتُها حتى لَمَستْ رفاصَ البندقيَّةِ المُلْقى على الأرض وما أسرع أن تجمَّد لبابُ

الخبزِ . عند ذلك سحبتُ الكرباج الذي التصق بطَرَفِهِ رفاصُ البندقيَّة! ولا أظنُّكَم تعجِزون عن تصوُّر ما حدثَ بعد ذلك حشوْتُ بندُقيَّتي من جديدٍ وأطلقتُها مرّتين على الدُبِّ فأصابتِ الأولى صُدْغه والثَّانيةَ قلبَه ، فارْتمى على الأرض وأخذ يموءُ وكأنَّه يودِّع أنثاهُ ويزأر زنيراً خافتاً وكأنَّه يصبُّ جامَ غضبه عليَّ!

والآن ، أنعِموا مساءً!

الليلة العشرون

عندما التأمَ عقْدُ الاجتماع في هذه الليلةِ دخل البارونُ بصُحْبةِ شابَ في مُقْتبل العمر قدَّمهُ إلى الحاضرين باسمِ ابن أخيه « ڤالديمار فُون مونشهاوزن » الذي جاءَ ليقضي بضعةَ أيامٍ في زيارة عمّهِ لا سيَّما أنَّ كثيراً من أبناءِ الجامعة يعرفون أخاهُ التوأم « أدالبيرتْ »

فلما استقرَّ بهما المقامُ صاح أحدُ الجالسين من الشُبان « أهلاً بك يا « أدالبيرت » وما الذي دعا بعمِّك ليقدِّمَكَ إلينا باسم أخيك « ڤالديمار » الذي لم تقعْ عيني عليه منذ أن كنا ندْرسُ معاً في معهدِ الغاباتِ »

وبدلاً من أن يرُدَّ الشّابُ على هذا السُؤال أجاب البارون

« إن سببَ ذلك بسيطٌ للغاية ذلك أن هذا الشابَّ يُدْعى فعلاً « ڤالديمار » وإن كان من السهلِ أن يختلطَ الأمرُ على الناظرِ فيحسبهُ أخاهُ الذي يُشبهُهُ شبهاً كاملاً »

وبينما كان البارونُ يُؤكِّدُ هذه الحقيقةَ اقترب السَّائلُ من ابن أخيه ، وكم كانت دهشتُهُ عندما رأى أن الزائرَ لا يكادُ يفترقُ في خِلْقتِهِ عن زميله في الدراسة « أدالبيرت » الذي يعرُفُهُ معرفةً تامةً فلما رأى

الباورنُ مبلَغَ دهشتِهِ عقَّبَ على ذلك بقوله

«أحلفُ لك بشرفِ الفروسيَّةِ أنَّ مَنْ تراهُ ليس صديقَك أدالبيرتِ بل ڤالديمار! وإني أؤكدُ لكم أن أقْربَ المقرَّبين لأحد التوأمين ليعجِزَ عن التَّمييز بينهما فيُنادي الآخر باسم أخيه الذي لم يرهُ من قبلُ ، وإني أترك ضيْفَنا الليلة ليقُصَّ عليكم طرفاً من الحكاياتِ التي امتلأتْ بها حياتُهُ بسبب هذا الشَّبَهِ التَّام بينه وبين أخيه

ثم إن ڤالديمار اعْتدلَ في مكانه وراح يروي هذه الحكاية

منذُ طفولتنا الأولى كان التمييزُ بيني وبين أخي عسيراً للغايةِ بسبَبِ هذا الشّبَهِ العظيم حتى أنّ أبي وأمي ما كانا ليفرِّقا بيننا

لهذا السَّببِ درجنا منذ طفولتنا على أن يلبَس كلُّ واحدٍ منَّا لوناً من الألوان ، فكانت ملابسي دائماً زرقاءَ لهذا كنْتُ أعْرفُ بالولدِ الأزرقِ ، أما أخي أدالبيرت فكان يُعْرَف بالولدِ الأخضرِ نسبةً لهذا اللَّون الذي كان يرتديه دائماً والذي كانِ يلائم دراسته كتلْميذٍ في معْهدِ الغاباتِ . وإني لأروي لكم حكايةً لعلّكم تتندَّرون بها

حدَثَ في الخريفِ الماضي أن خرجْنا في رِحْلَةٍ إلى جبال «الهَارزْ» وبعد ثمانيةِ أيَّام انتهى بنا المطافُ إلى قريةٍ اعتزمنا المبيتَ بها . فلمَّا كان الصَّباحُ حضَرَ المزيِّن ليحْلِقَ لنا وكنتُ في تلك السَّاعةِ نائماً في غُرفتي أما أخي أدالبيرت فكان مستعداً في انتظارِ المزيِّنِ فلما انتهى من حلاقةِ لحيته قصد أخي إلى غُرْفةِ النَّوم ليغْسِلَ وجهَهُ من الصَّابونِ ، وفي تلك اللَّحظةِ خرجْتُ بدوْري إلى حيْثُ المزيِّنُ ، فلمَّا جلسْتُ قُبالتَهُ رجوْتُ منه أن يُعْنى بحلاقة وجْهي إذْ كان اليومُ يومَ عطلةِ الأحدِ ولا أرغبُ في أن أبْدوَ بلحيةٍ طالت فبلغَتْ نصفَ قدمٍ

فلما سمِعَ المزيِّنُ كلامي هزَّ رأسه وقال «ليس لي فيك حيلةٌ فما هي إلا برهةٌ منذ أن تركتُ وجهكَ .» فلما اقترب مني كاد يسقُطُ

من الدهشةِ عندما رأى لحيتي ولم يكن منه إلا أن دهنَ وجهي بالصَّابون من جديدٍ وقال

« إنني لا أكادُ أصدِّقُ عيني إلا إذا كان ما أرى سحر ساحر ، فما شاهدْتُ في يوم من أيامي الطويلة منذ احترفتُ هذه الصِّناعةَ أنَّ لحيةً تنبتُ بهذه السُّرعةِ وماذا أقولُ لأبناءِ صناعتي إذا ما رويتُ لهم ما حدث! ؟ »

فلما انتهى سألتُهُ عن مقدار أجرهِ فنفختُهُ ضِعْفَ هذا القَدْرِ أُجْرةَ الحلاقتيْن ، ولكنَّهُ أبى إلا أنْ يأخُذَ النِّصْفَ حتى شدَّدْتُ عليه ، ولما خرج سَمِعتُه يكلِّم نفسهُ ويذكرُ السِّحر والسَّحَرة

عندما انتهى ڤالديمار من حكايتِهِ ، ارتفعتْ قهْقَهَةُ الحاضرين أما البارونُ فابتسمَ ابتسامةً طفيفةً وراحَ يحكُّ ذقنَهُ بأصابعه وقال

« أما أنا فسأقصّ عليكم حكاية مُزيِّنٍ آخر كنتُ سبباً في حيرتِهِ ودهشتِهِ وهذا ما سأروي لكم خبرَهُ في الغد ، فأستودعُكم الله هذه الليلة »

الليلة الحادية والعشرون

أقبل البارونُ برفقة ابن أخيه ، وما أن جلَسَ حتى بدأ الكلام دون أن يُمهِّدَ كما هي عادتُهُ

لي صديقٌ سافر إلى أمريكا للفُسحَةِ ، فلمَّا عاد إلى ألمانيا أحضر دهاناً عجيباً اشتراهُ هناكَ ، من صفاتِهِ أنه يُطيل الشَّعْرَ ويُقويّ جُذورهُ فأهداني من هذ الدواءِ سبعَ عُلبٍ كبيرة

ولما كنتُ في ذلك الوقتِ في غيرِ حاجةٍ إلي هذا الدّهان إذ كنتُ لا أُعنى بإطالةِ لحيتي خزنتُ هذه العُلَبَ في حجرةِ الحطَبِ ، فحملَها خادمي « يوهان » وصفَّها على النافذة حيثُ شمسُ الظهيرة تغمرُها في كلِّ يومٍ

مضت أيَّامٌ طويلةٌ لم يحدُثْ فيها ما ذكَّرني بهذا الدهان ، إذ كنتُ -فضلاً عن ذلك- لا ثقَةَ لي به ، وكنتُ أعتقدُ أنه من دَجْلِ الأمريكيِّين ثم حدثَ بطريق المصادفة أن دخلْتُ هذه الحُجرةَ ذات مرةٍ ، وقد مضى على هذا الدّهانِ شهرٌ كاملٌ ؛ فما أنْ خَطوْتُ خطوَةً حتى وجدْتُ أرض الغُرْفةِ غارقةً في هذا السائل اللزجِ الذي يخوضُ فيه الداخلُ حتى ركبتِهِ فأنتم تذكرونَ يا أصدقائي كيفَ أن الشَّمسَ قد أذابتِ الدهْنَ فتسرَّبَ

من صناديقِهِ إلى الأرض ، ولكن الذي أريدأن أؤكّده لكم هو أنَّ فِعْلَ الدهان ما فتئَ قوياً ، بل لعلّه أصبح أشدَّ من ذي قبل ؛ انحنَيْتُ وغمَسْتُ طرَفَ إصبعي في الزَّيت ولمستُ به شفتي العُلْيا لمساً رقيقاً فأحْسَسْتُ بلَسْعةٍ مقبولةٍ لا أكثر . فلما أصبح الصباحُ ونظرتُ إلى وجهي لم أكدُ أتبيَّنُه ، إذ في خلال اللَّيْل نبتَ الشعر على شَفتي واستطالَ كشاربِ فُرْسانِ الهوسارِ

وحدثَ مرّةً أن كان المزيِّنُ يقومُ بخدمتي فلمَّا أن انتهى ذهبْتُ إلى الغرفة المجاورَةِ ودهنْتُ وجهي بهذا الزَّيت ، فلمَّا عُدْت إليه ليغْسِلِ رغْوةَ الصَّابون وجد أن جذور الشعر نبتَتْ من جديدٍ فعرتْهُ الدَّهْشةُ وعاد يستكمل مهمَّته وهكذا أعدْتُ هذه الفُكاهة سبع مرّاتٍ في ذلك الصباح والحلاَّقُ في كل مرةٍ يحاولُ أن يضَعَ حداً لذلك حتى كلَّتْ ذراعُهُ فلم يستطعْ أن يرفعَها من شِدَّةِ الإعْياءِ وكلَّت موساهُ من تكرارِ المحاولةِ



وإنه ليؤسفُني أن أعجز عن إثبات العجائب التي يصنعُها هذا الدِّهان ، لأنَّه لم تعُدْ لديَّ بقيَّةٌ باقيةٌ منه . وسبَبُ ذلك أنني أنفقْتُ أكثرُه في تربيةِ مُهْرٍ لي صحَبني أثناءَ اشتراكي في المعارك الحربيَّةِ في هولنْدا ، وكان من أثر ذلك أن استطالَ شعْرُ هذا المهْر حتى بدا في شكلِ كلْبٍ من كلاب الزِّينة ، فكان إذا سارَ خلفي ولعب الهواءُ بخُصله الطويلة أثارَ إعجابَ السَّائرينَ ودهْشتَهُمْ ، وقد أصاب خادمي «تُوبِياز» نتيجةً لذلك بعض الخير أو بعض الشرِّ لا أدْري ، إذ أن الشعْرَ نبتَ في كفَّيه حتى أصبح كالضفائرِ كما نبتَ على صُدْغهِ على أثر لمسةٍ غيرِ مقصودةٍ عندما كان يمشُطُ هذا المهْرَ ، حتى أنَّه كان يذْهبُ إلى الأسواقِ ويَعْرِض نفسَهُ للفرجةِ لقاء قدْرٍ من النُّقودِ

لقد وعدْتكم يا أصدقائي بأن أرويَ لكم طرفاً عن فعل حرارةِ الشَّمس وما تقوم به من عجائبَ . وهذا ما حدث لي في تركيا ، ولكنْ تأخَّر بنا الليل فلْنُرْجئْ ذلك إلى الغد

الليلة الثانية والعشرون

حدث مرّةً أن كنتُ في استانبول في خلال أحدِ الأعيادِ التُّركية ، فاستأجرتُ قارباً للتَّجذيف في بحر «مَرْمَرَةَ» ، وبينما أنا كذلك إذ لمحْتُ نقطةً سوداءَ متحرّكةً . فأثار ذلك حَدْسي وقلتُ في نفسي لعلَّ ذلك طائرٌ من الطُّيور . فلمَّا رأى الملاّحُ حيْرتي ذكر لي أنّه كثيراً ما يرى في هذه الناحية عروساً من عرائسِ البحرِ ، وأن هذه العرائسَ لا تُؤثّرُ فيها البنادقُ

والحقيقة أنني لم أرَ في حياتي عروساً من عرائسِ البحر ، لهذا لم أصدِّق ما قاله الملاحُ وعددتُهُ ضرباً من الخرافات الشائعة التي يصدِّقُها صغارُ الأحلامِ دون أساسٍ معقول ؛ ولكنّ الرّجُل الذي مرّت به تجاربُ الحياة المختلفة ورأى غرائبَها ليس لهُ إلا أن يتمسّكَ بأهدابِ الحقيقة ولا يثِقِ إلا بما يجدُ له إثباتاً قاطعاً

وكان من حُسْن الحظِّ أن بُندقيّتي كانت معي فرفعتُها إلى صدْري وأطلقْتُ ثلاث رصاصاتٍ أو أربعاً صوْب هذه النُّقطة المتحركةِ في الفضاءِ ، فتبيَّنْتُ أنّها مازالتْ تتحرّك وتبتعدُ أكثرَ من ذي قبلُ ، وأنّ الارتفاعَ الذي ارتقتْ إليه لا تصِلُ إلى مداه البندقيَّةُ لهذا رأيتُ أن أستخدمَ نوعاً خاصّاً من الرّصاص بعيد المدى ، فحشوْتُ بندقيّتي بثلاثِ

قذائفَ أخرى ؛ وكان من العسير أن أصيبَ الهدَفَ لصعوبة الإصابة في ارتفاع رأسي والقاربُ من تحتي يتأرجحُ يَمنةً ويسرةً ، فلمّا أطلقْتُ القذيفةَ تردَّدَتْ فرقعتُها في الهواءِ كالرّعْد القاصف ، وفي تلك اللَّحْظة نفسِها وجدتُ نفسي مُلْقىً في قاع القاربِ إذ دفعتْني شدَّةُ القذيفة إلى الوراء ، فارتميتُ في مكاني هنيهةً وقد أُرْتِجَ عليَّ من هوْلِ الصدْمة

فلمّا فتحتُ عينيَ أبْصَرْتُ تلكَ النُّقطةَ السوْداءَ وقد أخذتْ تهْبطُ فجأةً حتى إذا اقتربتْ من مدى البصرِ تبيَّنْتُها جَلياً فإذا بها منطادٌ هوائيٌّ ، ليست طائراً من الطيور كما كنتُ أعتقدُ . وأخذْتُ أقدِّرُ مدى عظَمِ الارتفاع الذي كان يسبحُ فيه المنطادُ حين كان لا يبدو للعَيْن إلا شِبْهَ نُقْطةٍ غامقةِ اللّونِ ، حتى إذا اقتربَ من الأرض بدا في حجمه الطبيعيِ فكان محيطُه أكثرَ اتِّساعاً من قُبّة جامعِ استانبول الكبير التي اقترب المنطادُ منها فبدا التماثُلُ بينهما واضحاً

وكانت تتدلّى من المنطادِ سلَّةٌ كبيرةٌ في حجمِ القاربِ الذي كنتُ أركبُهُ . وفي كلِ لحظةٍ كان هذا الماردُ يقتربُ من سطح الماءِ شيئاً فشيئاً وما هي إلا لحظةٌ حتى سقطَ في البحر بدويّ هائلٍ وتناثر الماءُ من شدَّةِ السَّقْطةِ إلى ارتفاعٍ كبيرٍ وقد عرفتُ بعد ذلك أنَّ هذا الدَّويَّ سمعَهُ النَّاسُ في اسطنْبولَ نفسِها ، بل على مسافةٍ أبعدَ من ذلكَ ، فسمِعَهُ النّاس على الشاطئِ الآسْيَويّ ، وكان الرّأيُ السّائدُ أنَّ مخزناً من مخازن البارود قد انفَجَرَ في الهواءِ وأحْدثَ هذا الدَّويّ المرْعِبَ

وعلى كلّ حالٍ كان من حُسْن حظِّي أنَّ هذا الجسمَ الهائل قد سقطَ إلى يسار القاربِ الذي كنْتُ فيه ولم يَهْبِطْ على رؤوسنا

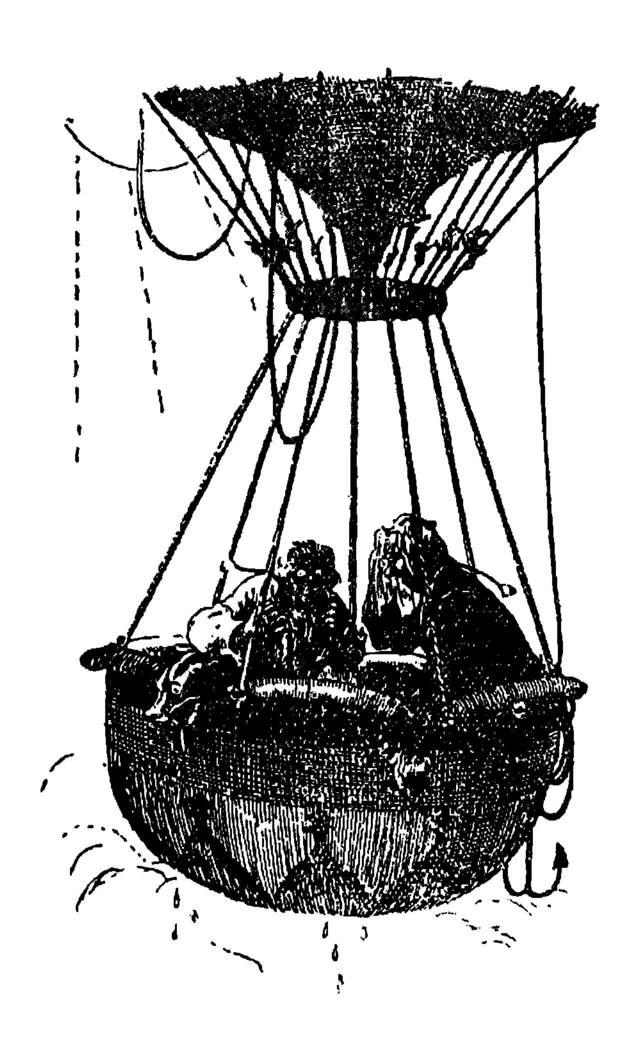
فلمّا أن سكنت أمواج البحر التي ثارت بفعل سقوط المنطادِ اقتربْتُ بقاربي منه فوجدْتُ في سلّته رجلاً هزيل الجسم من شدَّة الجوع والإعياء ، فلما رآني هشّ إليّ وحيّاني تحية الرَّجل المدين له بحياته فعرفتُ منه أنَّ اسمه السيد «سميثْ» وأنّه انجليزيّ ، ثم قص عليّ حكايتَهُ

كان هذا الرّجل يعملُ ملاّحاً هوائيّاً فخرج قبل ذلك بخمسة أيّامٍ من مدينة نيويورك بصحبة اثْنين قاصدين شلاّلات نياجرا . وما أن ارتفعَ المنطادُ في الهواءِ متَّجهاً صوبَ الغرب حتى هبّت ريحٌ عاصفةٌ حملَت المنطادَ في طياتها وقذفَتْ به صوبَ المحيطِ الأطلسي شرقاً عند ذلك استقرَّ رأيُ ثلاثتهم على الهبوط قبل أن يصل المنطادُ إلى حافة الماء ولكنَّ سوءَ الحظ لازمَهُمْ إذْ عندما حاولوا فتْحَ صنبور الغازِ ليتسرَّبَ إلى الهواء وجدوا الحبل مقطوعاً ، فاقترح الطيَّارُ على رفيقيْهِ أن يُسارعا إلى إنقاذِ نفسَيْهِما بالمظلّةِ الهوائيّة قبل أن يستحيل ذلك عليهما إذا ما وصل المنطاد فوق المحيطِ وهكذا نَجوا ، فلما هبَطا إلى الأرض وجدا أنّهما في جزيرة « نيو ڤونْدلاند » ؛ أما السيد « سمِثْ » فقد دفعتِ الرِّياحُ منطادَهُ شرقاً فلم يكن لديْهِ من أملٍ في النجاة إلا إذا قذفته الرِّياح إلى سطح اليابسة فانتهى به المطاف إلى أوربا

أخذتِ الرِّياح تتقاذفُ هذا المنطادَ الذي ثبت لها فلم ينفجر ويسقُط في الماءِ بل حالفه التوفيقُ فوصلَ برّ السّلامة ، ولكن لم يكنْ في قدرة صاحبه أن يهبط به إلى الأرض ، وكان ما يحملُه من طعامٍ وشرابٍ قد نفِدَ حتى تكالبَ عليه الجوعُ والعطشُ فتهالكَ إعياءً ، فكانتْ القذيفةُ التي أطلقتُها سبباً في نجاته ، إذ أحدثتْ ثُغرةً في كُرَةِ المنطادِ جعلت الغاز يتسرّبُ منها فيثقل وزنُه ويهبِطُ إلى الأرض فبذلك نجا الطيَّارُ من الموتِ الذي كان يتربَّصُه

وبدا السيد « سمِثْ » عارفاً بالجميل شاكراً لي صنيعي ، حتى أنّه رغب في أن يقدِّمَ إلي المنطاد نفسه هديةً ولكنني رفضتُ عرضَهُ على كلِّ حالٍ إذْ لا أعرف ماذا أصنعُ بمثْل هذه الهدية ؟ أما صاحبُ المنطاد فكان يقصد في الحقيقة أن يعبِّرَ لي عن جزيل امتنانه لصنيعي ، لذلك اقترحْتُ عليه أن يكتفي بأن أصحبه في رحلةٍ هوائيةٍ وهذه أبلغ في نفسي أثراً من الهدايا . فكان أوّلُ ما حرصنا عليه أن نُصلح خرق المنطاد ، ولكننا لم نجد في تركيا جميعها اخْتصاصيّاً في صناعة ترقيع المناطيدِ فعرضْتُ عليه وأنا باسمٌ أن أقوم بهذه المهمّة ؛ فلمّا كان اليوم الثّاني وجد لدهشته أن

الخـرقَ قد أُصْلِحَ مكانه فـارتقـيتُ وإيّاهُ سَلَّة المنطاد ، وصـحبَنـا في هذه الرحلة الهـوائيَّةِ كلبٌ فـارسيّ الأصل ضخم الجثّة اشتـراه صـديقي لوجاهة منظره



وما أن استقرَّ بنا المقامُ في هذه السلَّةِ حتى قطع صديقي الحبل فأخذ المنطادُ يصعد في الهواء شيئاً فشيئاً وكانت سرعة المنطاد في بادئ الأمر عنيفةً أو لعلّي أحسَسْتُ بها كذلك ، بيْد أنني ما أسرع أن فقدتُ هذا الشعور المُمِضَّ وطفِقتُ ألهو بالنظر إلى مشاهدِ الأرضِ والبحر التي بدت ساحرةً من تحتي ، والتي أخذَتْ دائرتها في الاتّساع شيئاً فشيئاً فما أنِ انقضتْ خمسُ دقائق حتى بدا أمامَ عيني البحرُ الأسود بأجمعه ، وبدا من الطرَف الآخر شاطئُ الدردنيل وبعض أجزاء البحر الأبيض وطرفٌ من شاطئ إفريقيَّة ، وبعد ساعةٍ من ذلك نظرْتُ فإذا أوربا جميعها ممتدةٌ وكأنها مصوَّرٌ جُغرافي ، ثم ارْتقينا إلى أبعدَ من هذا فتراءتْ لنا آسيا حتى حدودِ الصِّين واليابان!

لقد كان المنظرُ فاتناً جميلاً حتى أنني نسيتُ كلّ شيء غيره ؛ أما قائد المنطادِ فبدا على محيَّاهُ التعبُ والإجهادُ إذ كلما ارتقينا مرحلةً ارتفعتْ درجةُ الحرارةِ وأخذت نَبَضَاتُ قلبه تتوالى وتتتابع إذ لم يحدُث أن ارتقى صاحبي إلى مثل هذا الارتفاع الكبير ، وأخذ العرقُ يندفع من كلِّ مسام جلده كالينابيع ، أما المنطادُ فبدا لنظري وكأنه يتمدَّدُ بسبب خفَّة الهواء في هذه الطَّبقات الجويَّة العالية ، وقدَّر صاحبي هذا الارتفاعَ بميليْنِ على الأقلّ ، أما أنا فخالفْتُهُ في ذلك إذ قدَّرتُ الارتفاعَ الذي وصلْنا إليه بما لا يقل عن خمسة عشر ميلاً أو عشرين ميلاً من سطح البحر ، ومما أكَّد لي ذلك شِدَّة الحرارة التي تدلُّ على أننا قد اقتربْنا من قُرْصِ الشَّمس ، إذ كنت إذا نظرتُ إلى الأرض من تحتي لا أميِّز بين جبالها وأوديتها فقد بَدَتْ للعَيْن صحيفةً ملساء

عند ذلك عرضْتُ على صاحبي أن نقتصر عند هذا الحدِّ ، ففتَحَ صنبورَ الغازِ حتى إذا أخذ يتسرَّبُ إلى الهواءِ يقلّ وزن المنطاد ونأخذ في الهبوط ، غير أن صاحبي اعترف بأنه حاول ذلك فِعْلاً ولكنَّ الحبْلَ لم يسعفْه ، فإما أنَّه معقودٌ وإما أن خللاً طرأ على الصُّنبور في جزءٍ من أجزائهِ ، وفي تلك اللَّحظة أخذ الكلب يتحرَّك ثم ينبح نباحاً حزيناً وكان قبل ذلك ساكناً صامتاً لا يبدي حراكاً ، وأخذ نُباحه بعد ذلك في

الخفوت كلما ازداد الارتفاع وتخلخل الهواء ، بل إنَّ صوتَ صاحبي نفسِه لم يَعُدْ واضحاً فصار من العسير أن نتبادل الكلامَ كلُّ هذا والمنطادُ يتابعُ صعودَه في هذا السّكون الذي انعدمت فيه الأصواتُ حتى أنّنا في النّهاية لم نَعُدْ نتبادلُ الرأيَ إلا بالإشارة . وبدا لي أن رفيقي قد فَقَدَ قواه وأصبَحَ عاجزاً عن أن يَسْحَبَ الحبل الهوائيَّ بالشدَّة اللازمة ، لهذا رأيتُ أن أقومَ بهذه المهمَّة بدلاً عنه فأمسكتُ بطرف الحبل ، وجذبتُه جذباً عنيفاً ولكنَّ صنبورَ الغاز لم ينْفتح ، وكلّ ما حدث أنّني قطعتُ الحبل نفسَه شطرين وسقطْتُ على الأرض في قاع السلّة وما زلتُ مُمسِكاً بطرفِهِ!

وعندما تلفتُّ حولي بعد هنيهة ألفيْتُ صديقي ممدّداً كالأموات وقد فَقَدَ شعورَه من شدَّةِ الصَّدمةِ . أما الكلب فقد مات بالفعل ؛ فتدلّى لسانُه طويلاً وتصلَّبت أطرافُه وسكنَتْ حركة عينيه ووقفَتْ دقَّاتُ قلبه

يا لهُ من موقف عديم المثال لا أكاد أصَوِّرَه لكم بأمانةٍ وصدْقٍ! فقد غُمّ عليّ الأمر ولم أدْرِ كيف أعالج الموقف ، إذ إن ما حَملْناه من نبيذٍ وماءٍ قد نَفِدَ وألقيْنا بالزُّجاجاتِ الفارغةِ إلى الأرضِ . زحفْتُ إلى حيث السيد «سمِث» فوجدتُهُ مازال يتنفس وإن كان نبْضُه ضعيفاً خافتاً لهذا رأيتُ أن أسرع لنجدته قبل أن يفوت الأوان . فلما وقعت عيناي على الكلب النافق مرّت بي فكرةٌ خاطفةٌ ، فاستللتُ مُديتي وأنفذْتها في جلده حتَّى تدفَّق دمُهُ في كفِّي وأخذتُ ألطِّخ به وجه الإنجليزي وصدْرَهُ

ولا شكَّ في أنَّ هذا كان علاجاً نافعاً لأنه أخذ يتنفَّسُ ببُطءٍ وإن لم يعُدْ تماماً إلى صوابه ، ثم جاء دوْري فأخذتُ أمسحُ وجهي وجَبْهتي بهذا الدم ، فأحسَسْتُ بألم كلسعة الحريق ، ولكنني لم أجِدْ وقتاً لأفكِّر في نفسي ، بل كنت شديدَ الحرص على العناية بزميلي حتى يعودَ إلى رُشده ، ولما كانت يدي خاليةً من كلِّ وسيلةٍ عمليَّةٍ لإنقاذه ولم أجدْ بدّاً من الاستعانة بهذا الكلب لهذا سلَخْتُ جلده وفتحْتُ بعض شرايينِهِ طلباً للدم الذي عُدتُ فمسحْتُ به وجهه وصدره وقطَّرتُ نُقَطاً منه في فم

المريض . لقد نجحْتُ ، لأن صاحبي أخذ يتنفَّس في عُمق ثم إنه فتح عينيه واعتدل في مَجْلِسه ولكنَّ منظره كان مُخيفاً بعد أن تلطَّخَ وجهُه بالدِّماء

كلُّ هذا والمنطاد ما فتئ صاعداً ، فماذا أنا به صانعٌ ؟ لا أشكُّ في أنَّنا اقتربْنا كثيراً من الشَّمس إذ أصبح الوهجُ والحرارة لا تُحتمَلُ عند ذلك فكَّرتُ في طريقة أخرى للخلاص فجذبْتُ بندقيَّتي وصوَّبتها نحو المنطاد وأطلقتها ولكنني لم أسمع لها صوتاً! إذ كان الهواءُ قد وصل إلى درجةٍ من التَّخلْخُل جعلت الأصوات غير مسموعةٍ ، ولكنَّ القذيفة أصابت الهدَفَ فعلاً فأحدثَتْ ثغْرةً في كرة المنطاد جعلت الغاز يتسرَّب منه رُوَيْداً رُوَيْداً وأخذ المنطاد في الهبوط شيئاً فشيئاً وبدأتْ الحرارةُ في الانخفاض

نعم إنَّني لم أتذوَّق من قبل لحم الكلاب ولكنني ما كنت لأتورَّعَ من أن ألتَهِمَ هَبْرةً من لحم الكلابِ النيِّئ وأنا على تلك الحال ؛ وهذا ما حدث بالفعل ، إذ أخذتُ في تشريح الكلبِ وما أن بدأتُ ذلك حتَّى وجدْتُ -ويا للعَجَب- أنَّ الكلبَ كان مشوياً تامَّ النُّضج بفعل حرارة الشمس الشديدةِ ، فبينما كنتُ أنا وصديقي نحتمي في ظلِّ كُرة المنطادِ كان الكلب يتقلَّى في دُهنه حتَّى أصبح طعمُهُ شهيّاً مقبولاً ولا غَرابة فيما فعلناه إذ كنَّا لا نتورَّعُ عن أن نأكل ما هو دونه من طعام ، ألم يأكل الشَّيطانُ الذُّبابَ في ساعةٍ من ساعاتِ بؤسه ؟

وما أن انتهينا من طعامنا وتلفتْنا حولَنا حتى وجدنا أنفسَنا على سطح أمِّنا الأرض مرَّةً أخرى . وكان من حُسن الحظ أن تعلَّقْنا بنخلةٍ فوجدْنا بذلك الفاكِهةَ بعد الشواءِ! فبعد أن ازدردْنا حفنةً من البلح هبطنا إلى الأرض ورُحْنا إلى نَبْع قريبٍ لنطفئَ الظَّمأ ونغتسِلَ ، وكان السيد « سمث » أشدَنا حاجةً إلى الاغتسال

وحدث -كما يحدث عادَةً بعد غِذاءٍ فاخرٍ- أن أحسسْنا برغبةٍ مُلحَةٍ في النوم فانطرحْنا إلى جانب النَّبع وما أسرع أن حلَّ بنا النعاسُ

فغفونا حتى استيقظنا في الصَّباح على أصواتٍ تقترِبُ منَّا ؛ وكان القادمُ قافلةً لبعض التجار مُحمَّلةً بالبضائع جاءَتْ إلى النَّبع لتشرب ، فعرفتُ منهم أننا في إحدى واحات جزيرةِ العربِ الحجريَّة القاحِلةِ ، وأن القافلة في طريقِها إلى القُدس ، ولم نجد صعوبةً في أن نُرافقَهُمْ إلى فلسطين

ولا أريدُ أن أقُصّ عليكم كيف أن أحدَ رجالِ القافلةِ من العارفين بالتَّطبيب عُنيَ بأمري فاستأصلَ دُمَّلاً كبيراً عندي كان قد نشأ بسبب الضغوط الهوائيَّة وقد لا تُصدِّقونني إذا قلتُ إنني صنعتُ من جلد هذا الدمل خُفّاً عندما وصلنا إلى القدس!

والآن لقد جفَّ ريقي من الكلامِ ، ولعلّ ذكرياتِ حرارةِ الشَّمس اللافحةِ قد زادت من عطشي ، فإليَّ بزجاجةٍ من النَّبيذِ أو بزجاجَتَيْنِ!

الليلة الثالثة والعشرون

أصدقائي المحترمين ورفاقي الأعزّاء

حضـرتُ في هذه الليلة مُنفرداً كـمـا ترونَ ، إذ إن ابن أخي أصرَّ على أن يعودِ إلى شقيقه التوأم الذي عزَّ عليه أن يُفارقَه فسافر وصَحِبَتْه زوجتي في رحلته ، لهذا أسألكم أن تسمحوا لي بأن أشاطركُم العشاءَ في هذا المطعم ، ولكم أن تعدّوني رجلاً أرملاً إلى أن تعودَ إليّ زوجتي

وقبل أن أستكمل لكم قصَّتي التي بدأتُ روايتَها في الليلةِ الماضيةِ ، أريدُ أن أؤكّدَ لكم أن تلك الرِّحلةَ الهوائيةَ وما جرَتْ عليَّ من متاعب ما فتِئتْ ذكرياتُها عالقةً بذهني منذ ذلك العهدِ الطويل فلمَّا وصلْنا إلى القدس وجد السيد «سمث» سفينةً أقلَّتْهُ إلى لندن ، أما أنا فعدْتُ أدراجي إلى اسطنبول ولقد كـان اختفائي السّياسيُّ من هذه المدينة كما تذكُرون سبباً لغضبِ السلطان وحنقه ، فما أن تركْتُ المدينةَ حتى أرسل المنادون خلفي يُعلنون النّاس بأجراسهم في الشوارع بأن البارون قد اختفى ، وأن السُّلطان يدفعُ مكافأةً قدرُها ألفُ جنيهٍ لمن يأتي بالبارون أو يُرشِدُ عن مكانه

علمتُ خبر هذا إبّان رحلتي ، فلما عدْتُ إلى اسطنبول أرسلْتُ

أحد الانكشارية إلى القصر يقول إن رجلاً غريباً يعرفُ المكان الذي اختفى فيه البارون ؛ فلمَّا سمع السُلطان ذلك جاءَ إلى مكاني وهو يحمِلُ بين يديه كيساً فيه ألفُ جنيهٍ . فأنتم ترونَ يا سادتي كيف أن جلالتَهُ مُحِبٌ للتندُّر والفكاهة إذ أنه ما أن وقَعَ بصرهُ عليَّ حتى أقبَل هاشاً مُرحِّباً : «أهلاً بك يا صديقي مونشهاوزن! ها أنت تعودُ إلينا ثانيةً! ولكن أين كنت وأين كان مُقامُك» فأجبته .لقد كنتُ في جوارِ الشَّمس! »

وبينما كنَّا نتنزَّه في حدائق القصر رَوَيْتُ للسُلطان ما جرى لي أثناءَ رحلتي الأخيرة إلى الشَّمس ، فكان لذلك وقْعٌ كبيرٌ على نفسه ، وأصابتْهُ دهشةٌ عميقةٌ عندما ذكرتُ له بصفةٍ خاصةٍ كيف أنّ قوّتي الجسديّة الهائلةَ كانت سبباً في نجاتنا . وفي تلك اللَّحظة كنا إلى جوار المدْفَع النُّحاسيِّ الكبير المشهور الذي يُعدُّ أضخمَ المدافع في الدُّنيا قاطبةً وهو الذي يُطلِقُ قنبلةً زنتُها ألفٌ ومائةُ رطلٍ ويحتاج من البارودِ ما زنته ثلاثمائة وثلاثون رطلاً فلمَّا انتهيْتُ من كلامي ابتسم السُلطانُ وقال

« إذا كان ما تقوله صدْقاً يا مونشهاوزن فدونك هذا المدفع ارفعْه إلى الهواء إذا استطعْتَ . »

فأجبْتُ السُلطان «لك ذلك بل إني مستعدَ لأقوم بتجربةٍ أبرع من هذه ، فأرفع هذا الماردَ النُّحاسيَّ بيدٍ واحدة في الهواء »

ولعلّ السُلطان كان يريدُ أن يسخَر منِّي لأنَّه عرض عليَّ إذا ما رفعتُ المِدفع وسرتُ به مائة خطوة أن يمنَحَني مائة جُنيهٍ عن كل عشر خُطواتٍ فأثار هذا العَرْضُ في نفسي الكبْرياءَ والشعورَ بالكرامة

فما أن انتهى من كلامِه حتَّى خلعْتُ مِعطفي وانحنيْتُ على المدفع وقبضْتُ عليه بكلتا يديّ ورفعتُه في الهواء ثم وضعتُه على عاتقي ونزَلْتُ به الدَّرج

فما أن رأى السُلطان ذلك حتّى صاح من الدهشة ولكنَّني لم أقُفْ ولم أتمهَّل بل تابعْتُ سيري حتى وصلْتُ إلى ساحل البحر فنزلتُ به في الماء وسألتُ السُلطان كم ينقُدُني إذا حملْتُ هذا المدفع سابحاً إلى الشَّاطئِ الآخر ، فوعدني بستَّين ألف جنيه إذا فعلتُ ذلك لقد كان ذلك المجهودُ شاقاً ولكنني سبحتُ بمهارةٍ ونجحْتُ في الوصول إلى الشاطئِ الآسيوي!

كنتُ متعباً بعض الشيء فارتميتُ على الشاطئِ لأستجم ، ولكن ما هي إلا لحظات حتَّى وصل إلى مكاني زورق يُديرُه ثمانية عشر مجذافاً يقلّ أحد باشوات القصر الذي جاءَ إليَّ يحملُ الأخبار بأن السلطان العظيم أرْسَلَهُ ليهنِّئني ويعدني بأربعة أضعافِ المكافأةِ إذا عُدْت بالمِدْفع إلى مكانه الأوّل

فلمَّا سمعتُ كلام الباشا أحسَسْت بالنَّشاط يدب في جسمي فإنَّ مائتين وأربعين ألفاً من الجنيهات ثروةٌ تدفعُ الرجُلَ ليأتي بالعجائب ولم أنتظرْ طويلاً بعد أن أكّد لي الباشا أن السُلطانَ جادّ في كلامه ، فعقدْتُ ذراعيَ واحتضنتُ هذا المدفعَ الضخمَ وقذفْتُ به برميةٍ واحدة إلى الشاطئ الأوربي . ولكنَّ سوء الحظ لازمني إذ أن شِدَّةَ الرَمْيةِ لم تكن كافيةً ، فسقط على بُعْدِ ثلاثمائة خُطوة من الشاطئ وغرقَ في البحر حيث مازال رابضاً في قاعِهِ إلى اليوم كان هذا الحادث سبباً لهربي من اسطنبول ، ولم أحاول بعد ذلك العودة إلى هذه المدينة لأنّني أعرفُ أن الحبلَ الحريريَّ ينتظرني ، لذلك عمدتُ إلى التخفِّي فاشتريْتُ ثوْباً من ثياب العمَّالِ ليخفي حقيقتي واستأجرْتُ قارباً شراعياً من أحد البنادقة وهربْتُ به ، ومنذ هذا الحادث الذي انتهى بالفَشَل لم تطأ قدمايَ أرض تركيا

والآن فإلى العشاء! فها هي صاحبة المطعم جاءَتْ تدعونا ولا شكَ للطعام ، وإنِّي أسألكم يا سادة هل تعرفون «الفِلْش» المشهور ؟ لا لا ولا شكَّ! إنَّه اسم لصِنفٍ مُمتازٍ من السَمك لا يعيش إلاَّ في بحيرة

كنستانس بسويسرا ، ولهذا السّمك قصّة

منذ خمسةٍ وعشرين عاماً كنتُ في مدينة «بازِل» ضيْفاً على أحد أصدقائي لأشترِكَ في حفلة عُرسه التي كان سيحييها بعد أسبوعٍ من ذلك التاريخ ، وجاءَت السَّيِّدة إلى صاحبي تشكو من اختفاءِ سَمكِ الفِلْش وهو صنفٌ لا بدَّ منه في ولائم الزَّواج ؛ ولما كنْتُ لم أسْمَعْ عنه من قبلُ سألْتُ عن نوعه وعن مكانه وعزَمْتُ في التوّ على السفر إلى كنسْتانْس ولم تنقض ثلاثة أيام حتى ملأتُ سَلَّةً كبيرةً من هذا السّمك مع أنني لستُ من هواةِ صيْدِ الأسماك . ولعلَّني أخطأتُ في حسابِ الأيامِ ففزعتُ خشيةَ أن أصِلَ مُتأخِّراً عن موْعِدِ الحفل الذي حسبْتُ أنه في صباح ذلك اليوم نفسِه ، لذلك لم يكن أمامي إلاَّ أن أسرع

ولكن كيف السّبيلُ إلى الوصول إلى «بازل» والرحلة من بحيرة كُنِسْتانس طويلة شاقة ومعي هذا الحِمْلُ من الأسماك ؟

سُرعان ما طرأت عليّ فكرةٌ خاطفة ، فألقيتُ بالسّلة في نهر الرين واعتليْتُها وتركْتُ ماءَه المتدفِّق يحملُنا إلى بازل ، وفي أثناء ذلك أخذتُ ألهو بالصّيد فاصطدْتُ تسعَ عشرةَ سمكةً كبيرةً بعض الشيء وتركتُها تسبحُ أمام السّلة فتضاعفتْ سرعتُنا ، حتى إن الرّحلة من مدينة كُنسْتانِسْ على البحيرة المسمَّاة باسمها إلى بازل لم تستغرق إلا ساعتيْن فضلاً عن أنها كانت رحلةً شائقةً . وعندما مررتُ في طريقي بشلاَّلات الرّين عند «شافهَوزن» التي كانت تُعرفُ أصلاً باسم «ناوْهاوِس» اصطدمتْ سفينتي ببعض الصخور فبللْتُ ثيابي ، فزاد ذلك من اعتراف مضيفي بفضلي

والآن بعد خمسٍ وعشرين سنة يُحيي صديقي هذا عيدَ زواجه الفِضيّ لهذا أرسل إليّ هديّة من سمك الفلش تذكيراً بفضلي القديم

جاءت ومعها برميلٌ صغيرٌ من نبيذ التُّفاح وهو شرابٌ قد يكون مجهولاً لكم ، فمن كان منكم لا يستسيغُ هذا النَّوْع من النبيذ فإن صديقي تفضَّل فوق هذا وذاك بسَلّة من زجاجات الشَّمْبانيا!

والآن أقدِّم لكم يا أصدقائي ويا رِفاقي الأعزَّاء هذيْن الزَّوجين الكريمَيْن ، وإنهما ليؤكِّدان لكم أنني لم أعدُ جادَّة الحقيقة في حكايتي - والآن فإلى المائدة!

وهكذا انقضتْ ساعاتٌ كلُّها فرحٌ ومرحٌ ، الْتهم الضُّيوفُ خلالها أشهى صنوفِ الطعام وتقارعت الكؤوس ، وارتفعت الحناجرُ بالغناء ومُزج نبيذ التفَّاح بالشَّمبانيا وأكَلَ المدعوّون للمرّةِ الأولى سمك الفِلْش المشهور حتى إذا رُفعت المائدةُ ، وجفَّت الكؤوس ودَّع البارون أصدقاءه ورفاقه ، إذ كان في الغدِ قد عزم على شد الرِّحال إلى بازل ، حيث يصحبُ صديقيه الكريمَيْن في رحلةٍ بين أرجاء سويسرا الجميلة

الليلة الرابعة والعشرون

مضت سنةٌ كاملةٌ ، ولم ير أحدٌ البارون فون مونشهاوزن في مكانه المعتاد ، حتى إذا كانت هذه الليلة ظهر البارون على عتبة باب المطعم الذي اعتاد أن يقضي فيه لياليه مع أصحابه ورفاقه الأعزَّاء

وكان في خلال هذا العام غائباً في أسفاره ورحلاته ، حتى إذا ما وصَلَ إلى الوطنِ في الأمْسِ لم ينقضِ اليوم حتى وَجَدَ طريقه إلى مكانه المعهود

كان ظهور البارون على غيرِ انتظار من الجماعة ؛ فما كاد يخطُرُ في الغُرفةِ حتى استقبلته عاصفةٌ من الترحيب وانهالت عليه الأسئلةُ من كلِّ جالسٍ : من أين قَدِمَ ؟ وأين اختفى خلال هذه الفترة ؟ وماذا حدث له ؟ إلخ

فابتسم البارونُ وقال

أصدقائي ورفاقي الأعزَّاء

إذا انهالتْ على الإنسان عشراتٌ من الأسئلةِ على هذا النحوِ فلا شكَّ أنَّه عاجزٌ عن الإجابةِ عليها جميعاً في وقتٍ واحدٍ ، ومَثَلهُ مثل من يقِفُ تحت شجرةِ برقوقٍ قد نضجت ثمارها فأصبح عاجزاً عن التفضيل

بينها ، كذلك ليس لي إلاَّ أن أتخيَّر سؤالاً واحداً لأجيبَ عنه وبغير هذا لن أعرفَ كيفَ أبتدئَ وكيف أنتهي . أتسألونني من أين قدمْت ؟ وهذا ما سأرْوي لكم قصَّته في هذه الليلة

أرْجـو ألاَّ أشـيع الفـزعَ بينكم إذا قلت لكم إنَّني جئتُ من بلاد الهنود! إذ أقصِدُ بذلك أمريكا

إنَّني أشاهدُ على وجوهكم سحابةً من الشكِّ ، فلعلَّكم لم تفهموا ما أعنيه بذلك

نعم يا سادتي لقد عُدت من أمريكا ، وفي خلالِ العامِ الفائتِ لم أترك التَّطْواف بين أرجاءِ هذه القارةِ العظيمة ، بينما كانتْ زوْجتي تنزلُ ضيفةً في باريس على خالتها الكونتيس «فون بلو» . نعم لقدعدتُ يا سادتي من أمريكا وإنها لبلاد الغرائب التي لا يكاد العقل يصدِّقها وكم كنت أوَدُّ أن أزورَ أمريكا قبل استكشافها إبَّان ذلك العصر الذي كانت فيه بريَّةً لم تتأثَّر بسيل الحضارة!

أما أمريكا اليوم فقد غزَتْها رُسُل التَّمدُّن الأوروبِّي وضربتْ فيه بسهمٍ وفيرٍ حتى إن الرَّجل العادي من سكَّان الدُّنيا القديمة إذا حدث وزار أمريكا فإنَّه لا يكادُ يصدِّق ما يدور حوله كلَّ يوم ، وإني لأضرب لكم مثلاً فريداً عن عجائبِ السُّرْعة التي شاهدتها في تلك البلاد

عمد أهلُ أمريكا إلى تعبيد طُرُقٍ زراعية ممتدَةٍ ثبَّتوا في وسطها زوْجيْنِ من القُضبان الحديديةِ لا نهايةَ لطولها ، وعلى هذه القضبانِ سيَّروا قافلةً من العرباتِ ربطوا الواحدة منها بالأخرى وأداروها بقوَة بخار الماء . وبدأ الناسُ في أمريكا يسافرون بهذه الطَّريقة منذ عام ١٦٥٠ وأصبحت منذ عام ١٧٦٧ الطريقة الشائعة للمواصلات ويدعوها الناس السكة الحديدية ، وسوف يقلِّد أهلُ أوربا هذا الابتكار عما قريب وليس هذا بعجيبٍ ولكنَّ الغريب في الأمرِ السُّرعةُ الهائلةُ التي تسير بها هذه القُطُر!

وعلى مسافةِ خمسةِ أميالٍ انجليزيةٍ أو عشرة أعدّوا مكاناً للانتظار ؛ وهم يدْعون هذا المكانَ «بالمحطّةِ» ؛ ولكلّ محطّةٍ مُشْرِفٌ يدْعونه بناظر المحطةِ وتراه واقفاً في صدْرِ المكان كأنّه أميرٌ من الأمراءِ



وحدث مرة أن ركبت هذا القطار الحديديّ عند محطّةٍ من المحطّات ، وما كدْت أعتلي الدرجاتِ وأقِفُ على بابِ العربةِ حتى تقدّم إليّ أحدُ هؤلاءِ النظارِ وأراد أن يدفعني ، لأنه -كما يقولُ- يجب أن أجلسَ في عربةٍ غير التي كنتُ واقفاً أمام بابها . ولا شك أن الرّجلَ كان وقحاً ، ثم تبادلْنا الألْفاظ فما كان منّي إلا أن رفعتُ يدي لأصفعه

لوقاحته ؛ ولكنْ في تلك اللَّحظةِ انطلق صفيرُ الحصان البخاري ؛ وانطلق القِطار بسرعةٍ هائلة حتى أنَّني عندما أردْتُ أن أقبِضَ ذراعي وجدْتُني عند المحطةِ الثّانية على بُعْدِ ميْلَيْن ألمانيَّيْن من المكان الأوّل ، وإذا بيدي تسقُط علي وجه ناظر المحطةِ الثّانية الذي لا ذنْبَ له ، وكان هذا الرجلُ سمْحاً طيِّباً لذلك كان عليَّ أن أقدِّمَ اعْتذاري

في مقاطعةِ «اللينوس» التي تمتدُّ على نهر شيكاغو وهو النهر الذي يصب في بحيرة ميشيجان ، انتهى المطافُ بأحد أصْدقائي فاشتغلَ الزِّراعة ، ولكنْ مع الأسف لم تكُنْ ناجحةً كما كان يُؤَمَّلُ . وحدثَ عندما زُرْت هذا الصديق أن هبَّتْ زوبعةٌ شديدة دكَّتِ البيوت وحملتْ أخشاب السقوف الضخمةَ ، وأطارتْها في الهواءِ كما يطيرُ الريش ، وكان من الطَّبيعيَ أن تحمل هذه الزوْبعةُ النَّاسَ والحيوان فحمَلتْنا جميعاً في الفضاءِ كما حمَلتْ معنا ستين من الزنوج الأرقَّاء وأربعين من الهنود المستأنسين ، وبينما كنَّا معلّقين في الهواءِ رأينا كيف أن الزوْبعة اقْتلَعَتْ بئرين من الحجر وانطلقَتْ بهما

وبعد أن حملتْنا الزَّوبعة نحو عشرة أميال انجليزيَّةٍ صوب الغرب ألقت بنا في بعض البراري . وما أشدَّ دهشتنا عندما وجدْنا الزوبعةَ قد حملت إلى ذلك المكان نفسِه رفاقنا وحيواناتِنا ، بل إننا رأيْنا أمام عيوننا بيوتنا بأحجارها وأخشابها التي حملتْها الرياحُ . ولم نضع الوقت سُدىً في الانتظار ، إذ لم تنقضِ ستَّة أيَّام حتى غرسنا مزرعة جديدة في هذا المكانِ وأقمْنا فيها بيوتنا من جديد

ولكن أعْجبَ العجب هو ما جرى للبئرين ؛ فهاتان البئران يا أصدقائي ويا رفاقي الأعزاءَ منقورتان في الحجر وقد انتُزعتا من جوْفِ الأرض انتزاعاً وحملَتْهما الرياح دون أن تعبثَ بهما ، ثم ألقت بهما في المكان الجديد نفسه حتى كان من شدَّة الرِّيح أن غَرستهما غرساً في جوف الأرض! ولكن الغريب في الأمر أنَّه عندما بدأنا نرفعُ الماء من البئر

الأولى ثم من البئرِ الثانية وجدنا الدِّلاء ملأى بماء كثيف غريب الشَّكل فما أن رأيتُهُ حتى استولَتْ عليَ الدهشة إذ لم يكن هذا السّائل ماءً بل زيتاً حجْرياً -وهو الذي يدعونه بالبترول- وهو الذي يُصلحون به المصابيح فترسلُ ضوءاً أشدَّ وهَجاً من صنوف الزَّيت الأخرى ، ولم يكن في ذلك الوقت مَن كان يعرفُ أهميَّة هذا الزيت . ولم تمضِ تسعةُ أشهر وكنت إذ ذاك في مدينة نيويورك حتى وصلني خطابٌ من صديقي هذا يُنبئني فيه كيف أنَّه ما فتئَ منذ ذلك التاريخ يبيع محصول هاتيْن البئريْن من البترول وأنه في طريقه ليصبح من أصحاب الملايين . نعم قد صدقَ المثلُ القديمُ الذي يقول إنَّ الريح التي لا تحمِلُ معها خيراً ريحٌ خبيثةٌ

وأكثر هذه الزعازعِ تهُبُّ في الجنوبِ لا سيما في أمريكا الوسطى وقد عرفت بنفسي شدَّةَ هذه الأعاصيرِ في كوبا إحدى جُزر الهند الغربيَّة حيث ينمو أفخرُ أنواع التَّبغ ، فقد حدث مرَّة لصديق بَرَانْديزي (ومعنى ذلك دودة المطر) أن إعصاراً مطيراً اختلى به وهو في الطريق إلى مصنعه فما أن وقَفَ على عتبةِ البابِ حتى فاجأتْه الزَّوبعة فحلَّتْ جميعَ أزرار معطفه من أعْلى إلى أسفل فلمَّا أدار وجْهه من شدَّةِ الصَّدمة والدهشة ، عادت الريح فعقَدَتْ هذه الأزْرارَ في أسرعِ من لمح البصر ، أما قبعتُه فقد حمَلتها في الفضاءِ إلى حيثُ لا رجْعة

فأنتم ترَوْنَ يا أصدقائي أن ما رويتُه لكم مع غرابته حقيقةٌ لا ريْب فيها ، ولوْلا أنها حقيقةٌ واقعةٌ لما أمكن أن تحدثَ! ؟

الليلة الخامسة والعشرون

في أمريكا أيُّها السَّادةُ ؛ كثيراً ما ينزعُ أهلُ تلك البلادِ إلى الفكاهةِ الغريبة كما حدث مرّةً عندما كنْتُ في مدينةِ « فيلادلْفيا » حيثُ عقدتُ الصُّحبةَ في فندقٍ كنت أنزل به بسيِّدين يدعى أحدهما « كولڤن » والثَّاني « اسْتَانْهوب » وكانا يقضيان المساء عادةً في لعب الورق ، فتراهَنا على أن الرَّابحَ يدعو رفيقَه لفطورٍ لم يسبق لأحدٍ أن أعدَّه لضيوفه ؛ فخسر السيد استانهوب الرِّهان لهذا اتَّفقَ مع رفيقه على أن يقدم هذا الفطورَ في صباح الغدِ ، ولكن على ارتفاعِ ستَّةِ آلافٍ أو سبعة آلاف قدم من سَطْحِ الأرض! واستضافني صديقايَ لأشترك في هذه الوليمة العجيبة

وفي الصَّباح الباكر اصطحبتُ السيد كولڤن في الموعد المحدَّد وفي المكان المُعَيَّن لهذه الوليمة وجدْنا استانهوب في انتظارنا إلى جانب منطاد هوائيّ ضخمٍ وقد رافقتْهُ طاهيتُه التي حملَتْ معها أدواتِ الطَّهْو وصِحافَ الطعام ، ولما اكتمل جمعُنا جلس قائدُ المنطاد في مكانه وانطلَق بنا في الفضاءِ . وما أن أحسّتِ الطَّاهية بذلك حتى علاها الفزعُ وانطلَقَتْ تصيحُ إذ كانت تلك مفاجأةً لها غيرَ منتظرةٍ ، ثم إن سيّدَها أمرها بالهدوءِ وبإعْدادِ طعامٍ لأربعة أشخاص على أن تكون في حذر إذا

ما أوْقدَتِ النار حتى لا يمتد اللَّهب إلى كرة المنطاد فتنفجر

أخذتِ السيّدةُ تُعدّ المائدةَ وهي ترتعشُ فرقاً ، وكان قديدُ اللحم شهيّاً وكانت الشّمبانيا ممتازةً حتى إذا وصلْنا إلى ارتفاع ألْفين من الأمتارِ تلفَّتَ مضيفنا وقال لرفيقي : «أرجو أن تكون راضياً عن هذه الوليمة فإن هذه الرِّحلة الهوائيّة كلَّفتْني ثلاثمائة جُنيهٍ ، أما الطاهيةُ فإنّي سأدْفع لها مائتيْن من الجنيهات مكافأةً لها ، فكأنّني دفعْتُ ثمناً لهذا الفطور خمسمائة جنيهٍ ، أرجو أن يكون ذلك كافياً! »

والآن أيها السادةُ أستودِعُكم الله إلى ليلةٍ قادمةٍ

عند ذلك صاح أحد الجالسين مُبْتسماً «تمهَّل يا سيِّد مونشهاوْزن ، لقد كان في نيّتِكَ أن تحدِّثنا عن تلك السفينة الهائلةِ التي أقلتك في عوْدتِكَ من أمريكا! »

فأجابَ البارونُ ومازال مُمْسِكاً بقبضَةِ الباب

– نعم نعم! ولكن ليس لديَّ ما أفضي به ، إذ كلُّ ما هُناك أنّ السّفينة كانت من الضخامة والعِظَم بحيث أن الإنسان لا يمكنُه أن يُبْصر طولها من المُقدِّمة إلى الدقَّة بالعيْن المُجرَّدة إلا إذا استعان بمنظارٍ مقرِّبٍ ، وكان لكلِّ راكب أن يستعينَ بما لا يقلُّ عن خمسة من الملاّحين وثلاثةٍ من الصِّبيان يُرسلهم إلى قبطان السفينة للاستفسار عن مهبّ الريح – والآن أنعموا مساء!

وما أن انتهى البارونُ من كلامه حتى أغلَقَ البابَ وراءه ، وأخذ الجالسون يُنْصِتون لوقْعِ أقْدامه وهي تبتعد وقد غالبَتْهُم الدهْشة بسبب رغبة البارون في الخروجِ على هذا الوجْه من السُّرعة ، ولكن لم تمض دقائقُ حتى رأوْا البارونَ يعود أدراجَه ويدخلُ عليهم ليقول بصوتٍ جديٍّ

أستميحكم عذراً أيها السادةُ ، لقد نسيْتُ ما كنتُ أريدُ أن أحدِّثكم به أصْلاً . لقد سألتُكم عشرين مرّة عما إذا كنتم ما فتئْتم

تذكـرون الجنرال العـجـوزَ «اسكِرابِنْدانِسكي» الذي تعـرَّفتُ بـه في «وأرسـو» وأنا في طريقي إلى مـدينةِ «بُطرسْبـرج» وقـد رويتُ لكم طرفاً من أخباره ، فـهو الذي وضع قُرصاً فضيًّا على ثغرة جُمجمتِهِ ليتسرَّبَ منها بخارَ النَّبيذ إذا ما فعلت به الخمر فعلَها ؛ لا أشكُّ في أنَكم تذكرونه كما تدلُّ على ذلك هزَّةُ رؤوسكم ، والآن أرْوي لكم قصةً غريبةً عن هذا الجنرال

عند ذلك اقْترَبَ البارونُ من المائدة التي كان حولَها أصحابُه جلوساً وبدأ حكايتَهُ وهو واقفُ على قدميْهِ وفي شيءٍ من السرعةِ



«حدثَ عند نُشوبِ الحربِ الروسيَة التُركية أن كان الجنرال أحد الذين عادوا إلى الخدمة العسكريَّة ووُكلتْ إليه مهمَّةٌ خاصَّةٌ ، فكانت فرقته معسكرة عند مدينةٍ صغيرةٍ على الحدود التُركية نفسها . أما أنا فكنتُ على رأسِ فرقةٍ من «الهوسار» نازِلاً عند قريةٍ مجاورةٍ . وفي ذات صباحٍ قابلْتُ فلاَّحاً في الغابة وهو في طريقه ليجمَعَ ملْءَ كيسين من ثمرِ الصنوبرِ لزوْجةِ سيِّده التي كانت مغرمةً به ، فرأيتُ أن أصْحب هذا الفلاَّح في مهمته ، وبينما كنَّا نملأُ الكيس إذا بصراخ وهَمْهَمةٍ تسْترْعي أسْماعنا وتلا ذلك ظهور دُبٍّ عظيمِ الجُثَّةِ أخذ يقترِبُ من العربةِ المَوْسوقةِ بالصَّنوْبر وطفق يُطعِمُ نفسَهُ منه بشهيَّةٍ زائدة ؛ وكنَّا إذْ ذاك بعيديْن عن مكان العربَةِ التي تركت فوقها بندقيَّتي ، أما الدُبُّ فوقف هادئاً وكأنَّه ينتظر أن نقدِّمَ له حِمْلاً آخر من الصَّنوْبر!

وفي أثناء ذلك كان الفلاَّحُ قد أخرستْهُ الدَّهشةُ ، أما فرسه فقد تولاَّها الفزعُ فراحت تثِبُ في مكانها وتحاولُ الإفلات وتدور يمنةً ويسرةً منذ أن أحسَّت باقترابِ الدُّب منها ، فلما أن عاد الفلاَّح إلى صوابه صاح بها فانطلقت مندفعةً إلى الطريق تحمل الدب الذي لم يُحَاوِل الوثوبَ من العربة المُنْطلِقة بل اكتَفَى بأن عاد إلى صراخه وعويلِهِ ولعلَّ ذلك كان سبباً لاندفاع الفرس التي كانت تجري وكأنها في سِباقٍ حتى انْدفعتْ إلى المعسكر وهي تجُرُّ العربةَ وعليها هذا الدبُّ وهو لا يفتأ يصرخ ويُعْوِلُ

وفي تلك الساعة كانت الجنودُ مصطفةً في انتظار قدوم الجنرال اسكرابِنْدانسكي للتفتيش عليها كما وقفَتْ مئات من النَّظَّارة لمُشاهدة هذا العرضِ ، وعندما لمحت هذه الجموعُ عربةً قادمةً من بعيد وقد غمرتها سحُابة من التُّراب أسرع رجالُ الفرقة الموسيقيَّة إلى آلاتهم وأسرع حامِلو البيارق إلى أعلامهم ؛ وعندما اقتربت الزَّوبعة الرَّمْلية وبلغ الأسماع صوت العربةِ المقتَربة ، صاح قائدُ الفرقةِ «إنه الجنرال!» عند ذلك بدأتِ الفرقةُ الموسيقيَةُ بعزف النَّشيد الرُوسيَ الوطني وأخذ حامِلو البيارق في تلويح أعْلامهم ، ودوَّتْ في الفضاءِ صيْحةُ آلافٍ من

الحناجر تُنادي يحيا صاحب السَّعادة الجنرال «فُون اسكرابِنْدانسكي» يحيا!

وفي وسط هذا التّهليل والتّكبير وبين صفوف الجنود والنظّارة اندفعَتِ الفرسُ، ثم كبَت على الأرض! وبين أكياس الصنوبر التي فرغ نصفُها انتصب الدبّ وقد أصمّتهُ الدهشةُ، وراحَ يقلّبُ النَّظر حوالَيْهِ!

أما أنا وصاحب العربةِ فطفِقْنا نجري وراءَها، ولكن الفلاّح سرعان ما عاد على أعقابه وتركني أواصِلُ السَّيْر حتى وصلْتُ مقطوعَ الأنفاسِ إلى المعسكر في الدقيقةِ التي وصلَتْ فيها العربةُ، وقبل أن أتمهّل قبضتُ على الدّبّ بيدٍ واحدةٍ ورفعته في الهواء وصحت : يحيا صاحب السّعادة الجنرال! ثم ألْقيْتُ به على الأرض فتهشَّمَتْ أضلاعُهُ ودُكَّتْ عنقُه!

عندذلك صَمَتَتْ الموسيقا، وصَمَتَ الهتاف ولم يرتفعْ إلا صوتٌ واحدٌ كسر هدْأة هذا السُّكون، ذلك صوت قائد الفِرقة الذي أخذ يُنادي بأعلى صوتِهِ «إنّه البارون فون مُونشهاوزِن» وليس صاحب السَّعادة «اسكرابِنْدانِسكي» فأجابه أحد الجنود

«لا يا سيِّدي إنه الدبّ صاحب الصَّنَوْبر»!

وعندما كفَّ الجالسون عن الضَّحك والتَّهليلِ انْحنَى البارون شاكراً وقبْل أن يُغادرَ المكان تلفَّتَ حوْله وقال



«عقاباً لما اقترفَهُ هذا الدبّ الجريءُ ، الذي حاول أن يغْتصِب اسم صاحب السَّعادة رأيتُ أن أُحنِّطه وأحشُوهُ تبْناً . فإذا حدثَ وزار أحدٌ منكم المتحفَ الحَيواني في مدينة « كييف » فسوف يرى بعينيه هذا الدّبَّ

والآن أنعموا مساءً!

الفهرس

الكتاب للجميع

هكذا نريده؛ إيماناً بكونه قيمة تحتفظ بحجمها وفاعليتها مدى العصور.

وإذ شرعنا فعلاً بإنتاج هذه السلسلة من الكتب القيمة التي نشرت خلال العقود الماضية وتعذر وصولها إلى قارئ اليوم، فإنما نهدف إلى إشاعة المعرفة وتيسير وسائلها وتمكين القارئ من الوصول إلى الينابيع الفكرية ذات التأثير في حركة الثقافة وتاريخ الفكر، بأيسر السبل وأقل التكاليف.

ونأمل أن تكون سلسلة (الكتاب للجميع) إنجازاً فعلياً ووسيلة ميسرة تتيح للقارئ تكوين مكتبة ذات مساحة منفتحة على مختلف فروع المعرفة بكلفة لا تثقل عليه.

كل الأطراف المشاركة في هذا المشروع العربي متنازلة عن حقوقها لصالح القارئ



سلسلة كتب شهرية توزع مجاناً مع الصحف التالية

الإتحاد	العراق
المدى	العراق
الثورة	سورية
الأيام	البحرين
البيان	الإمارات
الحياة	السعودية
السفير	لبنان
القاهرة	مصر
القبس	الكويت

ISBN:2-84305-780-X



